برنهارد شلينك



القارئ

ترجمة: تامر فتحي




القارئ

شلينك، برنهارد

القارئ/ برنهارد شلينك – ترجمة تامر فتحي

روافد للنشر والتوزيع. 2016 ط أولى، القاهرة

214 ص ؛ 21 سم

1-رواية

2-العنوان

أ – المؤلف

رقم التصنيف: 813.008

رقم الإيداع: 13329 /2016

الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 751 -234- 3



روافد للنشر والتوزيع

تليفون 01222235071 2+

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com



رواية

برنهارد شلينك

ترجمة: تامر فتحي

الجزء الأول

1

أُصبتُ بالتهاب كبدي، حين كنتُ في الخامسة عشر من عمري. بدأ ذلك في فصل الخريف وانتهى في فصل الربيع، وكلما كانت السنة المنصرمة تزداد برودةً، وليلها يزداد طولًا، كلما ازددتُ وهنًا على وهن. فقط عند مطلع السنة الجديدة بدأت الأمور في التحسن. كان يناير دافئًا، فأخرجت لي أمى السرير في الشرفة، فرأيتُ السماء، والشمس، والسحب، وسمعتُ أصوات العيال، وهى تلعب فى الحوش، ثم بعدها بفترة وجيزة، وفي إحدى مساءات شهر فبراير سمعتُ شحرورًا يغنى.

أول مرة تجاسرت، وخرجت فيه كانت من شارع الزهور، حيث نعيش فى الطابق الثانى من بناية شُيدت في مطلع القرن، إلى منزل كبير في شارع المحطة. هناك حيث تقيأتُ في أحد أيام الاثنين من أكتوبر الماضي عند عودتي من المدرسة للبيت. قبلها بأيام، وأنا أشعر بضعف شديد، لم يسبق أبدا أن شعرتُ به. كل خطوة كان يلزمها مجهود، وكنت كلما وقفتُ، سواء أمام سلم البيت أو المدرسة، أتمكن بالكاد من رفع قدمي، وما عادت لي رغبة في الأكل أيضًا. وإن جلستُ أمام المائدة جائعًا، سرعان ما كنتُ أشعر بالغثيان، وذات صباح استيقظتُ بفمٍ جاف، وشعور بأن أعضائي الداخلية ثقيلة، وفي غير محلها داخل جسدي. استحيتُ من ضعفي الشدي، خاصة عندما تقيأتُ. كان ذلك أيضًا أمرًا لم يحدث لي أبدًا من قبل. فلقد امتلأ فمي فجأة، فحاولتُ بلع ما فيه، وأطبقتُ شفتيّ، ووضعت عليهما يدي، إلا إن

كل شيء اندفع عبر فمي وأصابعي. استندتُ على الحائط، ونظرتُ إلى القيء حول قدميِّ، ثم عاودني التقيؤ إلى أن تقيأت سائلًا مخاطيًا، أبيض اللون.

المرأة، التى أسعفتني تصرفت معي بخشونة تقريبًا. أمسكتْ بذراعي، وشدتني عبر المدخل المعتم لحوش البناية. في الأعلى كانت توجد حبال ممتدة من نافذة إلى أخرى، ويتدلى منها غسيل. وخشب مصفط فوق بعضه داخل الحوش؛ ومن ورشة مفتوحة تعالى صوت صرير منشار، وتطايرت نشارة خشبية. قرب مدخل الحوش كان هناك صنبور للماء. فتحتْ المرأة الصنبور، ثم غسلتْ يدي أولًا، وألقتْ بالماء، الذي غَرفته بيدها على وجهي. جففتُ وجهي بمنديلٍ.

"أحضر هذا". كان على مقربة من الصنبور جردلان، خطفتْ هى واحدًا وملأتْه، وأخذتُ أنا الآخر ، وملأتُه وتبعتُها عبر المدخل. طوّحتْ ذراعيها، ثم بعدتْ عن الماء المتدفق على الرصيف، الذي جرف القيء إلى داخل البالوعة. بعدها أخذتْ جردلى، وأرسلتْ دفقة ماء أخرى عبر الرصيف.

عدلت قامتها، ورأتني أبكي. "هاي ... يا ولد،" قالت، وقد جفلتْ، "يا ولد"، ثم أخذتني بين ذراعيها. كنتُ أطول منها قليلًا، فشعرتُ بصدرها قبالة صدري، وشممتُ في غمرة عناقنا، وحموضة أنفاسي رائحة عرقها الطازج، ولم أدرِ ماذا أفعل بذراعيّ.

توقفتُ عن البكاء. سألتنى أين أسكُن، ثم وضعتْ الجردلين جانبًا فى المدخل، وأخذتنى إلى البيت. مَشتْ بجواري، تحمل فى يد حقيبتي

المدرسية، وذراعي في اليد الأخرى. لم تكن المسافة من شارع المحطة لشارع الزهور طويلة. مَشتْ بسرعة، وفي ثبات ساعدني على أن أحذو حذوها. وأمام بيتنا قالت وداعًا.

في ذات اليوم استدعت أمي الطبيب، الذي شخص الحالة بأنها التهاب كبدي، وفي النهاية حكيتُ لأمي عن المرأة، ولا أعتقد بأني كنتُ سأزورها، إن لم أفعل ذلك، فأمي افترضتْ، بالطبع، أنه فور تحسني سأبتاع من مصروفي بعض الورد، وأذهب لأُعرفها بنفسي وأشكرها، ولذلك توجهت في أواخر فبراير إلى شارع المحطة.

2

ما عاد البيت، الذي كان في شارع المحطة موجودًا الآن. لا أدرى متى ولماذا هُدم، فلسنوات عديدة كنتُ خارج بلدتي. المبنى الجديد، الذى أُقيم فى السبعينيات أو الثمانينيات، وبه خمس طوابق، فضلًا على عِلّيّة، خالٍ من النوافذ الكبيرة أو البلكونات، ومغطى بقرميد أملس. أزرار أجراس كثيرة تشي بكثرة الشقق الصغيرة. شقق ينتقل إليها الواحد، ثم يغادرها كأنه يُؤجر سيارةً، ثم يُعيدها، وفى الطابق الأرضى يوجد مكان الصيدلية القديمة محل كمبيوتر، وسوبر ماركت، ونادي فيديو.

البيت القديم كان في الارتفاع نفسه، لكنه ذو أربع طوابق فقط، طابق أرضي مشيد من كتل حجر رملي مكشوط، وثلاث طوابق مبنية من الطوب والملاط، وبه نوافذ كبيرة بارزة مصنوعة من الحجر الرملي، وبلكونات ونوافذ مطوقة، وكانت تقود للطابق الأرضي وإلى بئر السلم بضع درجات، تتسع من أسفل، وتضيق من أعلى، ويحاوطها جداران على كل منهما درابزين حديد إنثال من طرفه لأسفل في شكل حلزوني، وكان الباب الأمامي يحده عمودان، ومن جانبي الحلية المعمارية يبرز أسدان، أحدهما كان يطل على شارع المحطة، بينما الآخر ينظر إلى أسفل، ولم يكن المدخل، الذى أخذتنى من خلاله المرأة للصنبور داخل الحوش، إلا مدخل جانبي.

مُذ كنتُ طفلًا صغيرًا، وأنا ألحظ البيت. كان يهيمن على صف البيوت، وكنتُ أتصور أنه إن أراد أن يزداد سُمكًا أو اتساعًا، فإنه لا بد للمنازل المجاورة أن تفسح له، وفى الداخل كنتُ أتخيل الدرج مطليا بالجص، وبه مرايا، وسجادةٌ طويلة مزينة بنقوش شرقية، وعليه قوائم نحاسية لامعة. توقعتُ أن البيت العالي لا بد وأن عِليّة القوم تسكن فيه، لكن بما أن المبنى كان مسودًا بفعل السنين، وأدخنة القطارات، فقد كنتُ أتخيل أن ساكنيه الكبار لا بد وأنهم مثله مغبرون، وغريبو الأطوار، وربما صُم أو بُكم، حُدب أو عُرج.

بعد ذلك بسنوات حلمتُ بالبيت مرارًا وتكرارًا. كانت أحلام متشابهة. تنويعات على حلم واحد، وموضوع واحد. أمشى فى بلدة غريبة، وأرى البيت. يقف فى حيٍ لا أعرفه وسط صف من البيوت. أواصل المشي مبلبلًا، فالبيت مألوف، لكن ما يحيطه ليس كذلك، بعدها أتذكر أنى رأيته فعلًا من قبل. أنا لا أرى شارع المحطة الموجود فى بلدتى، بل مدينة أخرى، أو بلدًا آخر. فى حلمى أنا في روما، مثلًا، وأرى المبنى، وأدرك أنى شاهدته من قبل فى مدينة برن. متذكرًا ذلك. أحلم وأنا مطمئن، فرؤية البيت فى أماكن مختلفة ما عادت تفاجئنى، بل صار كلقاء صديقٍ قديم مصادفة فى مكان غريب. أستدير وأعود وأصعد درج البيت. أريد الدخول، وأدير مقبض الباب.

حين أرى البيت فى مكان ما فى الريف، فإن الحلم قد يطول أو أتذكر تفاصيله جيدًا. أقود السيارة. أرى البيت على الجانب الأيمن وأواصل القيادة، ما يحيرنى للوهلة الأولى فقط هو وقوف مثل هذا

البيت، الذي يشبه بيوت المدن، وسط حقل مكشوف، بعدها أتذكر أني رأيته من قبل فتزداد حيرتي، وحين أتذكر أين رأيته قبل ذلك أستدير، وأقود السيارة عائدًا إليه. الطريق خالية دائمًا في الحلم، بحيث يمكنني أن أستدير بعجلاتي الصارخة، وأعود إليه بسرعة عالية. أخشى أن أتأخر، فأقود بسرعة أعلى، عندئذ أراه، محاطًا بحقول اللفت والحنطة، أو الكرم اليوناني، أو شجيرات الليمون الفرنسي. على مساحة مسطحة مرتفعة قليلًا. دون أشجار، والنهار صافٍ، والشمس مشرقةٌ، والهواء يهب ويلمع فوق حرارة الشارع. الأسوار تجعل البيت غير جذاب، ومعزولًا، لعلها أسوارًا تخص بيتًا آخرًا. البيت ليس أكثر عتمة مما كان عليه في شارع المحطة، غير أن النوافذ متربة تمامًا لدرجة لا تُظهر شيئًا مما بداخل الغرف، ولا حتى الستائر، فيبدو البيت كالأعمى.

أتوقفُ على جانب الطريق، وأعبر إلي المدخل. لا أحد على مرمى البصر، ولا شيء يُسمع، ولا حتى صوت محرك بعيد، أو صرير ريح أو صوت طائر. العالم ميت. أصعد الدرج، وأدفع مقبض الباب.

لكنني لا أفتح الباب. أستيقظ، وأنا أعرف أني أمسكت المقبض وأدرته. عندئذ يعود الحلم ثانية إليَّ، وأعرف أني حلمته من قبل.

3

لم أكن أعرف اسم المرأة. كنت ممسكًا بباقة ورد، وأقف مترددًا أمام البوابة، ولوحة مفاتيح الأجراس. وددتُ لو أنى استدرت وصرفتُ نظرًا، لكن حينئذٍ خرج رجل من البيت، وسألني عمن أبحث، ثم دلني على السيدة شميتز في الطابق الثالث.

لا قرميد مزركش، ولا مرايا، ولا سجاد، وأيًا ما كان عليه جمال الدرج البسيط، الذى لا يمكن مقارنته بأُبهة الواجهة، فإنه تلاشى منذ وقت طويل. زال طلاء السلم الأحمر من المنتصف، وبُليّ المشمع المزخرف بالأخضر الملصق على الحائط بمحاذاة الكتف، وشُدّت خيوطٌ مكان فجوات الدرابزين، ومن المكان كانت تفوح رائحة سوائل التنظيف. أظن أني لم ألحظ هذا كله إلا مؤخرًا فقط. كان دائمًا بنفس القِدم والنظافة، وكانت تفوح منه دائمًا رائحة المنظفات نفسها، وأحيانا كانت تمتزج برائحة الكرنب، أو الفاصوليا، أو طعام مقلي، أو رائحة غلي الغسيل.

لم أعرف عن باقي السكان شيئًا بخلاف هذه الروائح، ومسّاحات الأقدام على أعتاب الشقق، ولوحات الأسماء تحت كل جرس، ولا أذكر حتى أني التقيتُ بساكن آخر على السلم.

لا أذكر كيف سلمتُ على السيدة شميتز. أعتقد بأني حضّرتُ جملتين أو ثلاثا عن مرضي، ومساعدتها إياي، وكيف أنني ممتن لها، ثم تلوتهم عليها. قادتني إلى المطبخ.

وكان أوسع مكان بالشقة. فيه موقد، وحوض للغسيل، وحوض للاستحمام، وسخان، وطاولة وكرسيان، وخزانة مطبخ، ودولاب وأريكة، وكانت على الأريكة قطعة قطيفة حمراء، من دون نوافذ، وكان الضوء يدخله من زجاج الباب المؤدي إلى البلكونة، فلم يكن ضوء مبهرًا، فالمطبخ كان يضوي فقط لو كان الباب مفتوحًا، حينها كان صوت صرير المنشار يعلو من ورشة النجارة الموجودة في الحوش، وتفوح رائحة الخشب.

وكان بالشقة أيضًا غرفة معيشة صغيرة بها تسريحة وطاولة وأربعة كراسي ومقعد ومدفأة. هذه الغرفة لم تكن تجري تدفئتُها طيلة الشتاء تقريبًا، وبالكاد كانت تُستخدم في الصيف أيضًا، وكانت بها نافذة تطل على شارع المحطة، ومكان المحطة القديمة، الذي حُفر وجُهز الآن لتركيب أساسات المحكمة الجديد والمباني الإدارية، وأخيرًا كان بالشقة حمام من غير نافذة، وكان إذا ما فاحت رائحة من الحمام، عبقت الردهة.

ولا أذكر كذلك ما كنا نتحدث عنه بالمطبخ، فقد كانت السيدة شميتز تكوي ملابسها، وفردت على الطاولة بطانية صوف، وفوقها قطعة قماش من الكتان، ترفع قطعة ملابس تلو الأخرى من السلة، تكويها وتطويها، ثم تضعها على أحد الكرسيين، وكنتُ أجلس على الجهة الأخرى. كوت حتى ملابسها الداخلية، ولم أشأ أن أنظر، لكنني لم أتمكن من فعل ذلك. كانت ترتدى ثوبًا أزرق فضفاضًا بلا أكمامٍ وبه زهور وردية. كتفاها، شعرها الفضي المعقوص بحلية خلف عنقها.

يداها العاريتان البيضاوتان. أداءتها، وهى ترفع المكواه لتكوي بها، ثم تعيدها مكانها، ثم تطوي الملابس وتضعها جانبًا، كانت بطيئة ومُركزة، تمامًا كحركتها، وهى تنحني للأمام، ثم تعتدل ثانية. كان يعلو وجهها حينئذٍ أحد وجوهها، التي سترسخ فيما بعد في ذاكرتي. لو أستدعي صورتها الآن أمام عينيّ كيف كانت حينها، فإنها تبدو بلا وجه، مما يوجب عليّ أن أعيد تركيبه. جبهة عالية، وجنتان بارزتان، وعينان زرقاوتان، شفاه مكتنزة فى استدارة مثالية لا اعوجاج فيها، وذقن مربع. وجهٌ أنثويٌ قوي وعريض. أعرف أني وجدتُه جميلًا، لكنني لا أقدر على استحضار جماله ثانيةً.

4

"انتظر"، قالت حين نهضتُ لأنصرف، "يجب أن أذهب أنا أيضًا، سأتمشى معك".

انتظرتُها في الردهة. غيرتْ ملابسها في المطبخ، وكان الباب مواربًا. خلعت مريُلها الفضفاض، ووقفت بقميص داخلي أخضر فاتح، وعلى ظهر الكرسي تدلى جوز من الجوارب. التقطتْ أحدهما، وأخذتْ تشمره كالطوق بين يديّها، ثم وقفتْ ثابتة على قدم واحدة، مرتكزة بكعب قدمها الأخرى على ركبتها، وانحنت للأمام، وفردت الجورب على مقدمة قدمها، ثم وضعت قدمها على الكرسي، وشدت الجورب على سمانتها وركبتها، ووركها، ومالت جانبًا لتثبت الجورب بالحمالات التحتية. اعتدلت، ووضعتْ قدمها عن الكرسي، وأمسكت بالجورب الآخر.

لم أستطع رفع عينيَّ عنها. عن عنقها، وكتفيها، ونهديها، اللذيْن شف عنهما القميص، ولم يخفهما، ووركيها من حيث انحسر القميص عنهما لما ارتكزت على ركبتها بقدمها، التي وضعتها على الكرسي عارية شاحبة، في أول الأمر، ثم متلألئة، بعد ذلك في الجورب الحريري.

أحستْ بنظراتي، فأوقفتْ لبس الجورب الآخر، ثم استدارت ناحية الباب، ونظرت في عينيّ مباشرة. لا أقدر على وصف كيف بدت نظرتها متفاجئة، مرتابة، عارفة، زاجرة. احمرّ وجهي، ولوهلة

وقفتُ محترق الوجه. لم أحتمل أكثر من ذلك، فانطلقتُ أجري من الشقة، ونزلتُ السلم بسرعة، وخرجتُ من البيت.

تسكعتُ. شارع المحطة، شارع هوسير، شارع الزهور -لسنوات كان هذا طريقي للمدرسة- كنت أعرف كل بيت، كل حديقة، كل سور، الأسوار التى تُدهن كل عام، والرمادية المتآكلة، التى كان بوسعى تفتيت خشبها بيدى، والسياج الحديدية، التي كنت أطرق عليها بالعصا في صغري، وأنا أجري كي تُحدث صوتًا، والجدار الحجري العالى، الذى كنت أتخيل أن وراءه أشياءً عجيبةً ومخيفة، إلى أن استطعتُ تسلقه، ورؤية ما وراءه من صفوف رتيبة لأحواض مهملة لورود، وتوت، وخضار. كنت أعرف خصوات وطبقات القار على الطريق، وتبدلات الرصيف بين البلاط المسطح، وكتل البازلت، والقطران، والحصى.

كل شيء كان مألوفًا بالنسبة لي، ولما توقف قلبى عن الخفقان الشديد، وما عاد وجهى محمرًا، وصار ما حدث لي بين المطبخ والصالة بعيدًا تمامًا. تضايقت. لقد كنت كالطفل الهارب بدلًا من التصرف بثقة كنت أحسبها لدي. ما عدتُ ابن تسع سنوات، بل كنتُ فى الخامسة عشر، إلا أنني مازلتُ أجهل كيف يكون رد الفعل المتمكن.

الأمر المحير الآخر فيما حدث بين المطبخ والصالة كان لماذا لم أتمكن من رفع عينيَّ عنها؟ كان لديها جسد أنثوي للغاية، وقوي للغاية، أكثر حسية من البنات اللاتي أحببتهن، وأتطلع إليهن. كنت

متأكدًا أنها ما كانت ستلفت انتباهي لو أنني شاهدتها فى حمام للسباحة. لم تكن أكثر عريًا من البنات والنساء اللاواتى كنت رأيتهن بالفعل في حمام السباحة، فضلا على أنها كانت أكبر سنًا من البنات اللاواتي حلمت بهن. في حوالي الثلاثين عامًا؟ من الصعب تخمين عمرٍ ما دون أن تكون تجاوزته أو أوشكت على ذلك.

بعد ذلك بسنوات خطر لي أن السبب فى عدم قدرتي عن رفع عينيَّ عنها لم يكمن فقط في جسدها، بل في أوضاعها وحركاتها. كنت أطلب من صديقاتي أن يرتدين جوارب، ولم أشأ أن أفصح لهن عن السبب أو التحدث عن لغز ما حدث بين المطبخ والردهة. لذا كان يأتي طلبي على أنه مجرد رغبة فى رؤية الحمالات التحتية والكعوب العالية، واحدة من التهويمات الجنسية، لذلك كان الأمر يُلبى على نحو استعراضي، ولم يكن ذلك ما جعلني لا أتمكن من رفع عيني عنها، فهى لم تكن تستعرض، ولم تكن تغويني، ولا أذكر أنها فعلت خلاف ذلك. أذكر أن أوضاع جسدها وحركاته كانت بطيئة أحيانًا. ليس لثقل وزنها، بل بدت أكثر، وكأنها تنسحب داخل جسدها، لتتركه لنفسه، ولإيقاعه الهادئ، غير عابئة بما يدور في رأسها، ناسية العالم من حولها. النسيان نفسه، الذى غشى نظراتها وحركاتها، وهى ترتدي جواربها، لكنها هنا لم تكن ثقيلة، بل كانت تتهادى في رشاقة وغواية، غواية لا علاقة لها بالنهود والأرداف والسيقان، بل بالدعوة للاستكانة داخل الجسد ونسيان العالم.

حينها لم أكن أعرف شيئًا عن هذا كله -هذا لو أنني حقًّا أعرف الآن شيئًا- ولستُ أضرب مجرد أمثال فى الهواء، لكنني منذ ذلك الوقت كلما فكرتُ فيما كان يثيرني، تعاودني الإثارة ثانيًة، ولفك اللغز، كنتُ أُذكرّ نفسي بما حدث، وعندئذُ تتلاشى المسافة، التى وضعتُها كي أجعل من الأمر لغزًا، فأرى كل شيء أمامي مرة أخرى، ومرة أخرى أجدني غير قادر على أن أُشيح بعيني عنها.

5

بعد أسبوع كنتُ واقفًا أمام بابها ثانية.

لأسبوع، وأنا أحاول ألا أفكر فيها، لكن لم يكن هناك شيء آخر يشغلني أو يصرف تفكيري عنها، ولم يأذن لي الطبيب بالذهاب إلى المدرسة بعد، وكنتُ مللّتُ من الكتب بشدة، بعد شهور من القراءة، ورغم أن أصدقائي كانوا لا يزالون يأتون لزيارتي، لكنني صرتُ مريضًا لفترة طويلة لدرجة أن زياراتهم ما عادت تسد الفجوة بين حياتهم اليومية وحياتي، إلى أن قلّتْ مع الوقت، وكان من المفروض أن أخرج للتمشية، كل يوم مسافة أطول، دون أن أرهق نفسي. الجهد الذي أحتاج إليه.

وما أيام المرض في فترة الطفولة أو البلوغ إلا فاصل زمني من السحر! يكون فيه العالم الخارجي، عالم أوقات الفراغ في باحة البيت أو الحديقة أو في الشارع مجرد همهمة بعيدة عابرة في غرفة المرض، ففي الداخل، يتنامى عالم كامل من الشخصيات والحكايات الخارجة من الكتب، التي يقرأها المريض، والحمى، التي تضعف الإدراك وتشحذ الخيال، تحيل غرفة المرض إلى غرفة جديدة، مألوفة وغير مألوفة، تطل فيها الوحوش عبر تموجات الستائر والسجاد، وتتجمع الكراسي والطاولات وحقائب الكتب والخزانات في هيئة جبال ومبانٍ، أو سفن قريبة لدرجة اللمس، وبعيدة في الوقت نفسه. خلال ساعات الليل الطويلة تصاحب المريض دقات ساعة الكنيسة، أو جلبة سيارة تمر كل

حين ملقية بأضواء كشافاتها الأمامية، التي تمسح الحائط والسقف، وهناك ساعات دون نوم، لكنها ليست ساعات أرق أو ضعف، بل ساعات غنى. رغبات، وذكريات، ومخاوف وشهوات تشكل متاهة يفقد فيها المريض ذاته، ويسترجعها، ثم يفقدها مرة أخرى، وهناك ساعات يكون فيها كل شيء ممكنًا، حسنًا كان أو سيئًا.

يقل هذا إن تحسن المريض، لكن لو استمر المرض فترة أطول، عندئذ تتشربه الغرفة، ويظل الذي زالت عنه الحمى، وهو في فترة النقاهة رهين المتاهة.

كنت أستيقظ كل يوم بشعور بالذنب، وأحيانًا وقد ابتلَ بنطال بيجامتي أو تبقع. الصور والمشاهد، التي كانت تواتيني في أحلامي لم تكن طيبة. كنت أعرف أن أمي لن توبخني على ذلك، ولا قس الكنيسة، الذي راعاني في تعميدي، وكنت أحترمه، ولا أختي الكبرى كاتمة أسرار طفولتي، لكنهم كانوا سينصحونني بمودة وقلق، وذلك أسوأ من التوبيخ. كان الخطأ يكمن تحديدًا في أنني لو لم أكن أحلم بالصور والمشاهد في دعة، كنت أعمل بنشاط على تخيلها.

لا أدري من أين واتتني الشجاعة للعودة للسيدة شميتز. هل انقلبت نشأتي الأخلاقية على نفسها؟ أعني لو أن النظر إلى شخص ما برغبة لهو أمر خبيث تمامًا كإشباع الرغبة ذاتها، أو أن تخيل شيء بقوة لهو سيئ سوء فعل الشيء المتخيل نفسه. إذن لم لا يتم الإشباع والفعل؟ ومع مرور الأيام أدركت أني غير قادر على ترك الأفكار الآثمة، بل وجدتني أرغب أيضًا في فعل الخطيئة.

كان هناك اعتبار آخر، فعلاوة على أن الذهاب إلى هناك قد يكون خطيرًا، لكنه كان يستحيل فعلًا إدراك الخطر، فقد ترحب السيدة شميتز باندهاش، وهى تستمع لاعتذاري عن تصرفي الغريب، ثم تودعني بسلام، أوَليس عدم الذهاب أشد خطورة، لأنني بذلك أكون في خطر ألا أتمكن من التخلص من تخيلاتي، لذا فقد فعلت خيرًا بذهابي إليها، فقد تتصرف على نحو عادي، وأتصرف على نحو عادي، ويصبح كل شيء عاديًا مرة أخرى.

هكذا عقلتُ الأمر حينها جاعلًا من رغبتي بندًا في حسبة أخلاقية غريبة، مسكتًا شعوري بالذنب، إلا أن هذا لم يكن ما منحني الشجاعة للذهاب إلى السيدة شميتز. كان شيء واحد، وهو أنني قلت لنفسي أن أمي، وراعي كنيستي المحترم، وأختي الكبيرة، لو أنهم تفكروا في الأمر، فعلى الأرجح أنهم لن يمنعوني، بل قد يصرون على ذهابي.

في الحقيقة لقد ذهبت إليها لأمر آخر مختلف كليًا. لا أدري لِمَ فعلت ذلك، إلا أنني أدرك اليوم أن ما حدث في ذلك الوقت هو جزء من نمط حياة طويلة قد يفلح فيه تفكيري وفعلي في الإتيان معًا أو قد يخفقان في الإتيان معًا. أفكر، وأصل إلى نتيجة، أحيل النتيجة إلى قرار، فأكتشف أن الفعل أمرٌ مختلف تمامًا فقد يكون وليد قرار، لكنه ليس بالضرورة كذلك. على مدار حياتي كثيرًا ما فعلتُ أشياءً لم أقررها، وقررتُ أمورًا لم أفعلها. أحيانًا -أيما كان الأمر- يكون، سواء كان الذهاب لرؤية امرأة لا أرغب في رؤيتها ثانية أو أن أعطي

ملاحظات لرئيسي في العمل، وأنا أعلم أنها ستكلفني رأسي أو أن أستمر في التدخين، على الرغم أني قررت أن أُقلع، ثم أُقلع عن التدخين، حين أتقبل حقيقة أنني مدخن، وأنني دائمًا سأكون كذلك. لا أقصد أن التفكير، والوصول إلي قرار ليس لهما تأثير على الفعل، لكن الفعل لا يتأتى بمجرد التفكير في شيء، ثم اتخاذ قرار بفعله، بل له مصادره، التي تخصه. تصرفي مستقل تمامًا، كما أن أفكاري هى أفكاري، وقراراتي هى قراراتي.

6

لم تكن بالبيت. كانت بوابةُ البيت مواربةً، فصعدتُ الدرج، وضغطتُ الجرس وانتظرت، ثم ضغطتُ الجرس ثانية. داخل الشقة، كانت الأبواب مفتوحةً، رأيت ذلك، وأنا أنظر عبر الزجاج الأمامي للباب، كما كان بوسعي تبين الردهة والمرايا والدولاب والساعة، وكان بإمكاني سماع تكاتها.

جلستُ على السلم وانتظرت. لم أكن مرتاحًا، تمامًا كما يحس الواحد حين يتخذ قرارًا معينًا، وفي الوقت ذاته يخشى عواقبه، لكنه مستريح لأنه عقد العزم على اتخاذه دون أن يحفل بالعواقب، ولم أكن محبطًا، فقد كنت مصممًا على رؤيتها، وانتظارها حتى تأتي.

ودقت ساعة الصالة معلنةً مرور ربع ساعة، ثم نصف ساعة، ثم ساعة كاملة. حاولتُ متابعة التكات الخافتة، وعْدّ التسعمائة ثانية الفاصلة بين كل دقة وما يليها، إلا أنني كنت أخطئ في العد، فأعيد الكرّة، وارتفع في باحة المنزل صرير منشار النجار، وغزت المبنى أصداء أصوات بشرية وموسيقى انبعثت من إحدى الشقق، وفُتح بابُ، ثم أُغلق ثانيةً، ثم سمعتُ وقع أقدام متمهلة ثقيلة تصعد السلم. تمنيتُ أن يكون ساكنًا بالطابق الثاني، فلو أنه رآني، فكيف أشرح له سبب وجودي هنا؟ لكن الخطوات لم تتوقف عند الطابق الثاني، بل استمرت في الصعود، فوقفتُ.

كانت السيدة شميتز. تحمل في يد مقطف فحم، وفى الأخرى صندوق غبار، وحصى للمدفأة. كانت ترتدي زيًا مكونًا من جاكيت وجيب، وعندها أدركتُ أنها تعمل محصلة تذاكر ترام. لم تلحظني حتى وصلت إلي البسطة. لم تكن متضايقة أو متفاجئة أو هازئة- لا شيء مما كنت أخشاه. كانت تبدو متعبة، وحين وضعت الفحم جانبًا، وأخذت تنتشل المفتاح من جيب جاكيتها، سقطتْ منها بعض العملات المعدنية، فالتقطتُها، وأعطيتُها إياها.

"هناك مقطفان بالأسفل في البدروم. هلا ملأتهما، وأحضرتهما إلي هنا؟ فالباب مفتوح".

نزلت السلم جاريًا. كان باب البدروم مفتوحًا، والبدروم مضاءً، وعند أسفل الدرج وجدتُ غرفة خشبية بابها موارب، ويتدلى من مزلاجه قفل غير مغلق. كانت الغرفة واسعة، والفحم فيها مكدس حتى فتحة السقف، التي يُصب منها من خارج إلى داخل البدروم، وبجوار الباب، كانت توجد كومة منمقة من تراب المداخن، وعلى الجانب الآخر مقاطف الفحم.

لا أدري ما الخطأ، الذي ارتكبته، ففي بيتنا كنتُ أحضر الفحم من البدروم أيضًا دون أي مشاكل، لكن الفحم في بيتنا لم يكن مكدسًا ومرتفعًا بهذا الشكل. ملأت المقطف الأول بسلام، وحين التقطت المقطف الثاني من قبضتيه، وحاولت جرف الفحم من الأرض، بدأ تل الفحم في التحرك. من أعلى بدأت القطع الصغيرة تتساقط، وفي أعقابها قطعٌ أخرى كبيرة على مهل، ثم تزحزح التل كله،

وتدحرج على الأرض وانزاح عن مكانه، وتصاعدت سحب الغبار الأسود. كنتُ واقفًا مرتاعًا، بينما كتل الفحم تصدمني، وهى تسقط إلى أسفل، وسرعان ما غمر الفحم كعبيَّ.

وحين هدأ التل، أخرجتُ قدمي من الفحم، وملأتُ المقطف الثاني، وبحثتُ، فوجدتُ مقشةً كنستُ بها كتل الفحم، التي تدحرجت إلي ممر البدروم، وأعدتها إلى المخزن الخشبي، وأغلقت الباب بالمزلاج، وحملت المقطفين صاعدًا لأعلى.

كانت خلعتْ جاكيتها، ووسعت من رابطة عنقها، وفكت زر الياقة العلوي، وجلست على الطاولة في المطبخ، ومعها كوب من الحليب. رأتني، وكادت تَشرَق من الضحك، ثم أطلقت ضحكة مجلجلة، وأشارت إليّ، وبيدها الأخرى ضربت الطاولة. "انظر لنفسك يا ولد.. فقط انظر لنفسك"، ثم طالعني وجهي الأسود المغبر في المرآة الموجودة أعلى الحوض، فضحكتُ أنا الآخر.

"لا يمكن أن تعود إلى البيت بهذا الشكل. سأجهز لك الحمام، وسأنفض التراب عن ملابسك". ذهبتْ إلى حوض الاستحمام وفتحتْ الصنبور، فتدفق الماء بشدة. "اخلع ملابسك بحرص، فأنا لستُ بحاجة لأن يملأ الغبار المطبخ".

ترددتُ، ثم خلعتُ سترتي وقميصي، وترددتُ ثانية. كان الماء يرتفع بسرعة، وأوشك الحوض على الامتلاء. "هل تريد أن تستحم بحذائك وبنطالك؟ لا تخشى شيئًا يا ولد فلن أتطلّع إليك"، إلا أنني حين أغلقتُ الصنبور، ونزعتُ لباسي الداخلي أخذتْ تتفحصني

بهدوء تام. احمر وجهي، ونزلت في حوض الاستحمام، وحجبتُ نفسي تحت الماء، وعندما رفعتُ رأسي ثانية، كانت في البلكونة، ومعها ملابسي. سمعتُها تقرع فردتي حذائي ببعضهما، وتنفض بنطالي وسترتي، وتحدثتْ بصوت عال مع شخص ما بالأسفل عن غبار الفحم وغبار الخشب، فرد عليها هو الآخر بصوت عالٍ، فضحكتْ، بعد أن عادتْ إلى المطبخ وضعت أشيائي على الكرسي، ثم، وهي تخطف نظرة عابرة إليّ، قالت: "خذ من الشامبو واغسل شعرك. دقيقة وأحضر لك المنشفة"، ثم أخذت شيئًا ما من الدولاب، وغادرت المطبخ.

غسلتُ نفسي، واتسخ ماء الحوض، وفتحتُ الصنبور عن ماء جديد كي يتسنّى لي غسل شعري ووجهي تحت فيض الماء، ثم استلقيتُ على ظهري، مستمعًا لهدير السخان، ومستشعرًا على وجهي الهواء البارد الآتي من باب المطبخ الموارب، والماء الدافئ على جسدي. كنت مسترخيًا استرخاءً مثيرًا، فأحسستُ بالانتصاب.

لم أتطلع إليها، حين أتت إلى المطبخ، ووقفتْ بجوار حوض الاستحمام، وبطول ذراعيها المفرودتين، أمسكتْ بمنشفة كبيرة. "تعالى". أدرتُ ظهري، وأنا أنهض، وأخرج من الحوض. أحاطتني بالمنشفة من الخلف من أعلى رأسي حتى ساقي، وأخذتْ تجففني، ثم تركتْ المنشفة تسقط على الأرض. لم أجرؤ على التحرك. اقتربتْ مني حتى صار بوسعي أن أحس بنهديها قبالة ظهري، وبطنها قبالة

مؤخرتي. كانت عارية هى الأخرى. طوقتني بذراعيها. يد على صدري، ويد على عضوي المنتصب.

"لهذا أنت هنا!"

"أنا..."، لم أعِ ماذا أقول، فلم يكن الأمر نعم، لكنه لم يكن لا. استدرتُ، ولم أقدر على رؤية الكثير منها، فقد كنا متلاصقين، إلا أن حضور جسدها العاري غمرني.

"كم أنتِ جميلة!"

"هاي يا ولد ماذا تقول!"، وضحكتْ، وأحاطتْ عنقي بذراعيها، فأحطتُ عنقها أيضًا.

كنتُ أخشى أن ألمسها أو أُقبلّها، كنتُ أخشى ألا أرضيها أو أشبعُها، لكننا حين تعانقنا لبرهة، وشممت رائحتها، وأحسستُ بدفئها وقوتها، حدث كل شيء من تلقاء نفسه. تفحصتُ جسدها بيديّ وفمي، إلى أن تلاقت أفواهنا في النهاية، ثم اعتلتني وراحت تنظر في عينيّ مباشرة، حتى بلغتُ الذروة، فأغمضتُ عيني بشدة، وحاولت أن أتمالك نفسي، ثم صرختُ عاليًا لدرجة تحتم عليها أن تغطي فمي بيدها كي تخفض الصوت قليلًا.

7

في الليلة التالية، وقعت في حبها. لم أنم بعمق، كنتُ مشتاقًا لها، وحلمتُ بها، وشعرتُ بأني أتحسسها إلى أن أدركتُ أنني أمسكُ بالوسادة أو البطانية. فمي مجروح من شدة التقبيل، واستَثرتُ نفسي مررًا، لكنني لم أرغب في أن أستمني. ما كنتُ راغبًا أبدًا في الاستمناء. أردت فقط أن أكون معها.

هل وقعتُ في حبها جزاءَ نومها معي؟ حتى يومنا هذا، بعد قضاء ليلة مع امرأة، أشعر بأنني دُللتُ كثيرًا، وصار لزامًا عليّ دفع المقابل- لها بمحاولتي حبها على الأقل، وللعالم بتقبله.

واحدة من ذكرياتي القليلة الحية من أيام الطفولة تتعلق بالصباحات الشتوية لما كنت في الرابعة من عمري، وكانت الغرفة، التي كنتُ أنام فيها، في ذلك الوقت، من غير تدفئة، وفي الليل، ومع بواكير الصباح غالبًا ما تكون في غاية البرودة. أذكر المطبخ الدافئ، والموقد الساخن، موقد حديدي ثقيل، يمكن رؤية النار عند رفع الصحون والحلقات بممسك اللهب، عليه وعاء ماء ساخن جاهز على الدوام. أمام الموقد كانت أمي دفعت بمقعد لأقف عليه، بينما كانت تقوم بتحميمي، وإلباسي ثيابي. أذكر الشعور المريح بالدفء، والمتعة، التي كنت أحصل عليها في اغتسالي، وارتدائي لثيابي في هذا الدفء، وأذكر أنه كلما جال الموقف بخاطري، كنتُ أتساءل لماذا دللتني أمي لهذا الحد. أكنتُ مريضًا؟ هل نال أخوتي شيئًا لم أنله؟ أم

أن هناك شيئا غير طيب وصعب كان يتحتم علي الخوض فيه بقية اليوم؟

أيضا، ولأن المرأة، التي أجهل اسمها، دللتني في تلك الظهيرة، لذا ذهبتُ إلى المدرسة في اليوم التالي، فضلًا على أنني أردت أن أستعرض الرجولة، التي حصلت عليها. ليس بالحديث عنها، لكنني شعرت بأني قويٌ ومتفوق، وأردتُ أن يرى رفاقي في الفصل والمدرسون هذه القوة والتفوق، وأيضًا، ورغم أنني لم أتحدث معها بخصوص هذا الأمر، لكنني أتصور أن عملها ككمسارية غالبًا ما سيكون في المساء والليل، فكيف سيتثنى ليّ رؤيتها كل يوم لو تحتم عليّ البقاء في البيت غير مسموح لي بفعل شيءٍ سوى الخروج في فترة النقاهة للتريض.

حين رجعتُ من عندها للبيت، كان أبواي وإخوتي بدأوا في تناول العشاء بالفعل. "لماذا تأخرت؟ أمك كانت قلقة عليّك": بدا أبي من صوته أنه منزعج أكثر من كونه قلقًا.

قلتُ إنني ضللتُ طريقي، فلقد أردت المشي عبر حديقة النصب التذكاري الموجودة عند المقابر في اتجاه مولكينكر، إلا أنني همت على وجهي لمدة طويلة دون أن أدري أين أنا، حتى انتهي بي المطاف في ناسلوخ. "ولم يكن معي مال، لذا كان عليّ أن أعود من ناسلوخ للبيت سيرًا على الأقدام".

"كان بوسعك أن تشير لسيارة لتوصيلك". في بعض الأحيان كانت أختي الصغرى تفعل ذلك، لكن أبويّ لم يكن يروقهما ذلك.

نخر أخي الأكبر ممتعضًا، "مولكينكر وناسلوخ في اتجاهين مختلفين تمامًا".

حدجتني أختى الكبرى بنظرة متفحصة.

"غدًا سأعود للمدرسة".

"إذا عليك أن تهتم بالجغرافيا، فهناك شمال، وهناك جنوب والشمس تشرق...".

قاطعت أمي أخي، "قال الطبيب ثلاثة أسابيع أخرى".

"لو أنه بإمكانه قطع المسافة كلها عبر المقابر إلى ناسلوخ، ثم العودة ثانية، إذن فبإمكانه الذهاب للمدرسة. ليست القوة هى ما تنقصه، بل العقل".

منذ كنا صبية صغارا، كنتُ أنا وأخي نضرب بعضنا بعضًا باستمرار، بعد ذلك صرنا نتشاحن بالكلمات. كان يكبرني بثلاث سنوات، ويفوقني في الأمر الأول والثاني. عند حد معين توقفتُ عن مبادلته العراك، بل تركت هجماته تروح أدراج الرياح، ومنذ ذلك الحين، وهو يحصر نفسه في الشكاية ضدي.

"ماذا تعتقد؟"، التفتت أمي لأبي، فوضع سكينته وشوكته في طبقه، وعاد بظهره للوراء، ثم عقد يديه في حجره، ولم يقل شيئًا. نظر بتمعنٍ، بطريقته المعتادة عندما تحدثه أمي بخصوص الأولاد أو شئون البيت، وكالمعتاد، أخذتُ أتساءل إذا ما كان حقًا يقلب سؤال أمي في رأسه، أم أنه كان يفكر في أمر يخص عمله، ربما كان يفكر حقًا في

سؤال أمي، لكنه ما إن يبدأ رأسه في العمل، فلا يسعه التفكير إلا في عمله. كان أستاذًا للفلسفة، وكان التفكير حياته، التفكير والقراءة والكتابة والتدريس.

أحيانا ما ينتابني شعور بأننا كلنا جميعًا في عائلته أشبه ما نكون بالحيوانات الأليفة بالنسبة له. الكلب الذي تصحبه معك للتريض، القطة التي تلعب معها، وتتكوّر في حجرك، وهي تموء برقة، من أجل أن تداعبها، قد تغرم بهم، بل حتى قد تحتاج إليهم إلى حد ما، إلا أن الأمر برمته –شراء الطعام، وتنظيف الصناديق، وزيارات الطبيب البيطري– لهو أمرٌ مُبالغ فيه فعلًا، فحياتك في وادٍ آخر. كنتُ أتمنى لو أننا –عائلته– كنا حياته. أحيانًا كنتُ أتمنى أيضًا لو أن أخي الشكاء، وأختي الصغيرة المتغطرسة كانا مختلفين، لكن في تلك الليلة شعرت بأنني أحبهم جميعًا فجأة، وبشكل فظيع. أختي الصغيرة، ربما ليس من السهل أن تكون الأصغر بين أربعة، لذا فهي احتاجت أن تكون متغطرسة لتحافظ على استقلاليتها. أخي الأكبر. تقاسمنا الغرفة معًا، ولا بد أن الأمر أصعب عليه مني، علاوة على ذلك، كان عليه، منذ مرضي، ترك الغرفة لي وحدي والنوم على الأريكة في غرفة المعيشة، فكيف لا يشتكي مني؟ أبي. لم يتحتم علينا نحن الأطفال أن نكون كل حياته؟ لقد كنا نكبر بسرعة، وعلى وشك أن نصبح بالغين، ونترك البيت.

شعرتُ كما لو أننا نجلس معًا للمرة الأخيرة حول المائدة المستديرة تحت نجفة القصدير ذات الشمعات الخمس، ونتناول وجبتنا الأخيرة

من الصحون القديمة المنقوش على حافتها أوراق العنب الخضراء، ونتحدث مع بعضنا البعض بحميمية شديدة لآخر مرة. شعرتُ كما لو أننا نقول وداعًا. كنتُ لا أزال موجودًا، لكنني رحلتُ بالفعل. كنتُ أحنُ لأمي وأبي وأخي وأختيّ، وأشتاق للمرأة.

تطلع إليَّ أبي، "غدًا سأعود للمدرسة، ذلك ما قلته، أليس كذلك؟"

"نعم"، وهكذا لاحظ أنني من سأله، وليس أمي، وأنني لم أكن أتساءل إذا ما كان يجب عليّ الذهاب للمدرسة أم لا.

أومأ برأسه، "فلتعد للمدرسة إذن. لو صار الأمر مُتعِبًا لك، فستعود للبقاء في البيت ثانية".

كنتُ سعيدًا، وفي الوقت نفسه شعرتُ بأن مراسم الوداع اكتملت.

8

على مدار الأيام القليلة التالية، كانت المرأة تعمل في الوردية الصباحية، وكانت ترجع للبيت في الثانية عشرة ظهرًا، وكنتُ أقطع أخر حصة دراسية لأكون بانتظارها على الدرج خارج شقتها. كنا نتحمم، ونمارس الحب، وقبيل الواحدة والنصف كنتُ أرتدي ثيابي في عجالة، ثم أنطلق خارجًا من الباب، فالواحدة والنصف كان موعد تناول الغداء. في أيام الآحاد كان الغداء في الثانية عشرة، وكانت ورديتها الصباحية تبدأ، وتنتهي لاحقًا.

وددتُ لو تخطينا الحموم، لكنها كانت نظيفة للغاية، تتحمم كل صباح، وكنتُ أحب رائحة العطر، والعرق الطازج، ورائحة الترام، التي تحضرها معها للبيت من العمل، لكنني كنتُ أحب أيضًا جسدها المبتل المغطى بالصابون، وأحب أن أتركها تحممني بالصابون، وأحممها بالصابون، ولقد علمتني ألا أفعل ذلك بحياء، بل بإحكام وتمكن، ومع أننا كنا نمارس الحب معًا، إلا أنها كانت تتملكني كالعادة. فمها كان يستحوذ على فمي، ولسانها كان يلعب بلساني، أخبرتني أين ألمسها، وكيف، كانت تعتليني إلى أن تصل إلى الذروة، كنتُ موجودًا فقط لتنال المتعة مني ومعي. لا أقصد أنها كانت تفتقر إلى الرقة، أو أنها لم تكن تمتعني، بل كانت تفعل الأمر لمتعتها اللعوب، إلى أن تعلمت أن أتملكها أيضًا.

حدث ذلك فيما بعد، ولم أتمكن من فعله تمامًا، ولوقت طويل لم يكن يفوتني فعل ذلك. كنتُ صغيرًا، وأصل للذروة سريعًا، وحين أفيق ثانية ببطء، كنتُ أحب أن تتملكني. كنت أنظر لها، وهي فوقي، لبطنها، التي انثنت بعمق من أعلى سرتها، لثدييّها، الثدي الأيمن أكبر قليلًا من الأيسر، لوجهها وفمها المفتوح. كانت تستند بيديّها على صدري، ثم في اللحظة الأخيرة تنزعهما، وتمسك برأسها وتطلق نشيجًا مكتومًا، وخرخرة أفزعتني في أول مرة، لكنني رحت أنتظرها بشوق كبير بعد ذلك.

بعدها، كنا نسقط خائري القوى، وغالبا ما كانت تروح في النوم وهي فوقي. كنتُ أسمع صوت المناشير في باحة المنزل، والصيحات العالية للعاملين بها كي يتسنى لهم سماع بعضهم البعض، وعندما يسكت صوت المناشير، كانت ضوضاء المرور بشارع المحطة تخترق المطبخ، وعندما تتناهى لمسامعي أصوات الأطفال وهم يلعبون، كنتُ أعرف أن المدارس خرجت، وأن الساعة تجاوزت الواحدة، وأن الجار الذي كان يعود لبيته في وقت الغداء، نثر طعام الطيور على بلكونته، فجاءه الحمام، وأخذ يطلق هديلًا.

"ما اسمكِ؟".. سألتها في اليوم السادس أو السابع.

كانت نامت فوقي واستيقظت لتوها، حتى ذلك الحين كنت أتفادى قول أي شيءٍ لها يتطلب مني مخاطبتها بصيغة رسمية أو حميمية.

حدجتني بنظرة: "ماذا؟"

"ما اسمك؟!"

"لماذا تريد أن تعرف؟".. نظرت لي بارتياب.

"أنتِ وأنا... أعرف لقبك، لكن اسمك الأول فلا. أريد أن أعرف اسمكِ الأول. ما المشكلة في ...".

ضحكت "لا شيء، يا ولد، لا مشكلة في ذلك. اسمي هانا"، ثم واصلت الضحك، ولم تتوقف إلى أن انتقلت إليَّ عدوى الضحك.

"لقد حدجتني بنظرة غريبة".

"كنتُ لا أزال شبه نائمة. ما اسمك أنت؟"

اعتقدت بأنها تعرف، فلم يكن من الظريف في ذلك الوقت أن تحمل الكتب المدرسية في حقيبة، بل أن تتأبطها تحت ذراعك، وعندما وضعتهم على طاولة المطبخ، كان اسمي ظاهرًا أعلى الدفاتر، وكذلك على الكتب المجلدة بورق سميك ملصوق عليه طابع به عنوان الكتاب واسمي، لكن يبدو أنها لم تعر ذلك اهتمامًا.

"اسمي مايكل بيرج".

"مايكل، مايكل، مايكل"، أخذت تجرب الاسم، "ولدي الصغير اسمه مايكل. إنه في كلية".

"في المرحلة الثانوية".

"في الثانوية، ما عمره يا ترى، سبعة عشر؟".

كنتُ فخورًا بالعاميّن الإضافييّن، التي منحتني إياهم، فأشرتُ برأسي إيجابًا.

"إنه في السابعة عشر من عمره، وحين يكبر يود أن يصبح .... مشهورًا".

ترددتُ، "لا أعرف ماذا أريد أن أصبح".

"لكنك تجتهد في مذاكرتك".

"نوعًا ما". أخبرتها بأنها أهم بالنسبة لي من المدرسة والدراسة، وأنني أتمنى لو أظل معها طيلة الوقت، "فعلى كل حال سيتحتم عليَّ إعادة السنة الدراسية".

"في أي صف أنت؟"..اعتدلت في جلستها. كانت هذه أول محادثة جادة بيننا.

"في الصف العاشر. لقد فاتني الكثير في الشهور الأخيرة، في أثناء مرضي. لو أنني أريد أن أنتقل إلى الصف التالي فعليّ أن أعمل بغباء، بل يجب عليّ أن أكون في المدرسة الآن"، ثم أخبرتها بأنني كنتُ أترك الحصص الأخيرة.

"اخرج"، وأزاحتْ عنها الغطاء، "اخرج من سريري، وإن أردت ألا تقوم بواجباتك، فلا تعد ثانية. العمل بغباء؟ ها؟ إذن ماذا تعتقد بيع التذاكر وتخريمها؟"، ثم تركتْ السرير، ووقفت عارية في المطبخ، وهي تؤدي دور الكمسارية، وبيدها اليسرى فتحت الحقيبة الصغيرة المليئة برزم التذاكر، مستخدمة إبهام اليد نفسها، المغطى بقمع

مطاطي، لسحب تذكرتين، وأخذت تطوّح يدها اليمنى لتمسك المثقاب المتدلي من وسطها، كي تحدث بهما ثقبين: "تذكرتان إلى رورباخ"..أسقطت المثقاب، وامتدت يدها إلى فاتورة، وفردتها على بطنها، ثم فتحت حافظة النقود، ووضعت بها الفاتورة، وأغلقت الحافظة ثانية، وراحت تضغط على الفكة من خارج كيس العملات المعدنية الملتصق بالحافظة.

"من الذي لم يقطع تذكرةً؟"، ثم نظرت إليَّ، "العمل بغباء، أنت لا تعرف ما العمل بغباء".

جلستُ على حافة السرير. كنتُ مصدومًا، "أنا آسف، سأقوم بواجباتي. لا أدري إن كنتُ سأفلح في ذلك في غضون ستة أسابيع، فالسنة الدراسية أوشكت على الانتهاء. سأحاول، لكن لن يمكنني عمل ذلك دون رؤيتك"، "أنا ....". أردت أنا أقول في أول الأمر أحبكِ، إلا أنني لم أفضل ذلك، ربما كانت محقة.. إنها محقة بالطبع. لكن ليس من حقها أن تطالبني بعمل المزيد من واجباتي المدرسية، وأن تجعل من ذلك شرطًا لكي نرى بعضنا ثانيةً، "لا يمكنني أن لا أراكِ".

دقت ساعة الصالة الواحدة والنصف "عليك أن تذهب". ترددتْ، "من الغد سأعمل الوردية الرئيسية، وسأعود للبيت في الخامسة والنصف بوسعك أن تأتي. بشرط أن تقوم بواجباتك أولًا".

وقفنا عرايا قبالة بعضنا، لكن لم يبدو عليها أبدًا أي ازدراء، وكأنها ترتدي زيها الرسمي. لم أستوعب الموقف. هل كانت تفكر فيَّ؟

أم في نفسها؟ لو أن أداء واجباتي المدرسية هو العمل بغباء، فإن ذلك يجعل من عملها أكثر شقاءً، أهذا ما أغضبها؟ لكنني لم أقل أن عملها هو عملٌ غبي. أم أن الأمر أنها لا تريد الفشل لحبيبها؟ لكن هل أنا حبيبها؟ وهل هي كذلك بالنسبة لي؟ ارتديت ثيابي، في تلكؤ، وتمنيت لو قالت شيئًا، لكنها لم تقل شيئًا، ثم انتهيت من ارتداء ملابسي، وكانت ماتزال تقف عارية، وعندما احتضنتها مودعًا لم تستجب.

9

لماذا ينتابني الحزن عندما أفكر في تلك الأيام؟ أهو الحنين لسعادة غابرة، لقد كنتُ سعيدًا في الأسابيع القليلة اللاحقة، حيث قمتُ فيها بأداء واجباتي بكدٍ كالمجنون، واجتزتُ بنجاح الصف الدراسي ومارسنا الحب، كما لو أن لا شيء آخر في العالم يهم. أهي معرفة ما حدث لاحقًا، وأن ما عُرِف بعد ذلك كان موجودًا بالفعل؟

لماذا؟ لماذا كل ما كان لطيفًا بالنسبة لنا يتبعثر فجأة عند استعادة الماضي، ألأنه توارى خلف حقائق قاتمة؟ ولماذا تستحيل ذكرى سنوات الزواج السعيدة إلى مرارة لو اتضح أن الشريك كان لديه عشيق طيلة تلك السنوات؟ لأنك لا يمكن أن تكون سعيدًا في مثل هذا الموقف، لكن أوَ كنا سعداء! أحيانا لا تُخلِص الذاكرة للسعادة حين تكون النهاية مؤلمة. هل لأن السعادة لا تكون حقيقة إلا لو دامت للأبد؟ أم لأن الأشياء تنتهي دائما بألم فقط، إذا كانت تحوي طيلة الوقت بداخلها ألم مُدرك أو غير مُدرِكٍ؟ لكن ما هو ذلك الألم الذي لا يُدرك؟

أذكر ذلك الوقت، فأرى نفسي أمامي. كنت أرتدي بِدَّلًا أنيقة تركها عمٌ غني مات، فانتقلت إليّ، مع عدة أزواج من الأحذية ذات اللونيّن، الأسود والبني، والأسود والأبيض، الشمواه والجلد الطبيعي. ذراعاي وقدماي كانت طويلة للغاية، ليس بالنسبة للبدَّل، التي أطالتهم لي أمي، لكن بالنسبة لنسق حركاتي. نظارتي كانت من النوع

الرخيص الشائع، وشعري مجعّد، رغم كل ما فعلته له. في المدرسة لم أكن جيدًا ولا سيئًا.

وأعتقد بأن كثيرًا من المدرسين لم ينتبهوا لي، ولا الطلبة المتفوقين بالفصل. لم تكن تروقني هيئتي، ولا شكل ملابسي، ولا طريقة حركتي، وما حققته، وما أنا عليه، لكن كان بداخلي كثير من الطاقة والتصديق بأنني يوم ما سأصبح وسيمًا وذكيًا ومتفوقًا، ومحط الأنظار، وبهذا الحدس كنتُ أقابل الناس الجدد، والمواقف الجديدة.

أهذا ما كان يحزنني؟ تلك الحماسة والتصديق اللذان كانا يملآني في ذلك الوقت، أم العهد الذي قطعته الحياة ولم تحققه أبدًا؟ أحيانًا أري نفس الحماسة والتصديق في وجوه الأطفال والمراهقين، أراهم بالحزن نفسه، الذي أشعر به، وأنا أتذكر نفسي. أهذا هو الحزن حقًا؟ أهذا ما ينتابُنا حين تتبعثر الذكريات الجميلة عند استعادة الماضي، لأن السعادة المستعادة لا تعيش فقط على المواقف الحقيقية إنما على العهود، التي لم تُصَن؟

هي -ويجب أن أدعوها هانا، تماما مثلما بدأت أدعوها في ذلك الوقت هانا- لم تكن تحيا بالتأكيد على الأحلام، بل على واقعها الخاص.

سألتها عن ماضيها، فكان الأمر كأنها تستخرج إجاباتها من أنقاض صدرها. نشأت في ترانسلفانيا، ثم جاءت إلى برلين، وهى في السابعة عشر، عملت في مصنع سيمنز، ثم انتهى بها الحال كمجندة بالجيش، وهى في الحادية والعشرين من عمرها، ومنذ نهاية الحرب،

كانت مرت على أشغال عدة، أما عن مهنتها ككمسارية، وهى المهنة، التي تشتغلها منذ عدة سنوات، فإن أكثر ما تحبه فيها هو الزي الرسمي، والحركة المتواصلة، وتغيُّر المشاهد من حولها، وحركة العجلات تحت قدميها، بخلاف ذلك لم يكن يستهويها شيء. كانت بلا عائلة، وتبلغ من العمر ستة وثلاثين عامًا. قصت عليّ كل هذا، وكأنها ليست حياتها، بل حياة شخص آخر، شخص لم تكن تعرفه جيدًا، ولم يكن يعنيها أمره. المزيد من الأشياء، التي أردتُ معرفتها، تلاشت تمامًا من رأسها، ولم تفهم لما كنتُ مهتمًا بمعرفة ما حدث لوالديها، وإذا ما كان لديها إخوة وأخوات، وكيف عاشت في برلين، وماذا فعلت في الجيش" ماذا تريد أن تعرف، يا ولد، كل شيء!"

الأمر ذاته مع المستقبل. بالطبع لم أتخيل خططًا للزواج وتكوين أسرة، لكن كنتُ أضع نفسي مكان جوليان سورال في علاقته مع مدام رينال، وليس مع ماتيلدا ديلا مول*. كنتُ سعيدًا برؤية فيليكس كرول وهو ينتهي به الأمر في أحضان الأم بدلًا من الابنة. أختي، التي تدرس الأدب الألماني، أخبرتنا على طاولة العشاء عن الجدل الدائر حول إذا ما كان تربط فون جوتة علاقة حب بشارلوت فون ستين، فدافعت عن الفكرة بحماس شديد، أدهش عائلتي. كنتُ أتخيل كيف ستكون علاقتنا في غضون خمس أو عشر سنوات. سألتُ هانا كيف تتخيلها. لم تكن تريد أن تفكر حتى في عيد الفصح القادم، حيث أردت أن أذهب معها في رحلة على الدراجة في أثناء العطلة، فبوسعنا أن نحصل على غرفة مشتركة كأم وابنها، نقضي فيها الليلة معًا.

الغريب أن هذا الاقتراح لم يشعرني بالخجل، ففي رحلة مع أمي، كنتُ سأناضل للحصول على غرفة بمفردي، فمصاحبة أمي لي عند زيارة الطبيب، أو عند شراء معطف جديد، أو أن تقلني بعد رحلة لهو أمر بدا لي أنني كبرتُ عليه، ولو أننا ذهبنا إلى مكان ما معًا، والتقينا رفاقي بالمدرسة، كنتُ أخشى أن يحسبوني ابن أمه، لكن أن يراني أحد مع هانا، التي تصغر أمي بعشر سنوات، وقد تبدو كأمي، فإن ذلك لم يكن يزعجني، بل كان مثار فخر لي.

لو أرى اليوم امرأة في السادسة والثلاثين من عمرها، أجدُها صغيرة، لكنني حين أشاهد ولدا في الخامسة عشر، أراه طفلًا. أنا مندهش من حجم الثقة، التي منحتني هانا إياها. لفت نجاحي في المدرسة انتباه المدرسين، وضمن لي احترامهم. الفتيات اللواتي كنتُ أُقابلهن لاحظن، وأحببن أنني لم أكن أخشاهن، وشعرت بألفة مع جسدي.

الذاكرة، التي أضاءت مقابلاتي مع هانا، واحتفظت بتفاصيلها بدقة، أصابها الغبش بشأن الأسابيع، التي كانت بين حوارنا الأول، ونهاية السنة الدراسية. السبب الأول هو انتظام مقابلاتنا واتخاذها النهج نفسه، والسبب الآخر أن أيامي لم تكن أبدًا بهذا الامتلاء، ولا حياتي كانت أبدًا بهذه السرعة والكثافة، عندما أتذكر ما قمت به في تلك الأسابيع من عمل، فإنه يبدو، وكأنني جلست على مكتبي، وظللت هناك إلى أن ألممتُ بكل شيء، فاتني في أثناء إصابتي بالتهاب كبدي، تعلمت كل المفردات، وقرأت كل النصوص، وعملت

على النظريات الرياضية، وحفظت الجدول الدوري للعناصر الكيميائية، أما عن جمهورية فايمار والرايخ الثالث، فلقد قرأتُ عنهما في فراش المرض. مقابلاتنا في تلك الأسابيع بدت في ذاكرتي، وكأنها مقابلة طويلة واحدة، بعد حوارنا، كانت مقابلاتنا تتم دائما بعد الظهيرة، لو أنها كانت تعمل في الوردية المتأخرة، من الثالثة للرابعة والنصف، وأحيانًا حتى الخامسة والنصف. في السابعة كان موعد تناول العشاء في بيتنا، وكانت هانا في أول الأمر تجبرني على أن أكون في البيت في الموعد، لكن بعد ذلك بفترة لم تكن الساعة والنصف كافية، فبدأتُ أفكر في اختلاق الحجج لتفويت موعد العشاء.

كان هذا كله بسبب القراءة بصوت عالٍ، فبعد حوارنا بيوم واحد، أرادت هانا أن تعرف ما الذي كنتُ أدرسه في المدرسة، فأخبرتها عن ملاحم هوميروس، وخُطب سيسيرو، وقصة هيمنجواي عن الرجل العجوز، وصراعه مع السمكة والبحر. أرادت أن تسمع كيف تبدو أصوات اللغة اليونانية واللاتينية، فقرأتُ لها من الأوديسا، وخُطب ضد كاتلين.

"وهل تتعلم أيضًا الألمانية؟".

"بأي طريقة تقصدين؟".

"هل تتعلمون فقط اللغات الأجنبية، أم مازال هناك شيء تدرسونه بلغتكم الأم؟".

"إننا نقرأ نصوصًا". في أثناء مرضي، قرأوا في الفصل مسرحية "إيميليا جالوتي"، ومسرحية "المكائد والحب"، وكان لا بد من كتابة مقال عنهما، لذا كان يجب عليّ قراءتهما، وفعلت عندما انتهيت من عمل كل شيء، حينها كان الوقت تأخر، وكنتُ متعبًا، وما كنت اقرأه لا أتمكن من تذكره في اليوم التالي، فكان عليّ قراءتهما من جديد.

"إذن فلتقرأهما لي!"

"اقرأيهما بنفسك، سأحضرهما لكِ".

"لديك صوت عذب يا طفلي الصغير، وأود أن أستمع إليك عن قراءتهما بنفسي".

"أوه، لا أعرف".

لكنني حين عدتُ في اليوم التالي، وأردتُ تقبيلها تراجعتْ "أولًا عليك أن تقرأ لي".

كانت جادة، لذا كان لِزامًا عليَّ أن اقرأ لها مسرحية إيمليا جالوتي لمدة نصف ساعة، قبل أن تأخذني للاستحمام، ثم بعد ذلك للسرير. الآن صرتُ أستمتع بالاستحمام. الرغبة، التي كنتُ أشعر بها عند وصولي كانت تضيع مع قراءتي لها بصوت عالٍ. قراءة مسرحية بصوت عالٍ تجعل، بشكل ما أو بآخر، الشخصيات مختلفة، أكثر تميزًا وحياةً، وتحتاج لتركيز عال. عند الاستحمام تتنامى الرغبة من جديد.

أن اقرأ لها، وأستحم معها، وأمارس الحب معها، ثم أستلقي بجوارها. تلك كانت طقوس لقاءاتنا.

كانت مستمعةً يقظة. ضحكها، زفرتها، غضبها وملاحظاتها الحماسية، وتعجبها لم يدع مجالًا للشك بأنها كانت تتابع الحبكة باهتمام بالغ، وأنها وجدت إيميليا ولويز فتاتين سخيفتين. لهفتها، التي كانت تطلبُ بها مني أحيانًا الاستمرار في القراءةِ بدت كأنها وليدة أملٍ بأن هذه الحماقة ستنتهي في النهايةِ من تلقاء نفسها. "غيرُ معقولٍ!"، كان هذا يجعلني أتوق أحيانًا إلى مواصلةِ القراءة، ومع امتداد ساعات النهار، كنتُ أقرأ أكثر، كي يتسنى لي أن أكون معها في الفراش عند الغسق، وحين كانت تسقط في النوم، وهي راقدةٌ فوقي، ويهدأ صوت المنشار في الباحة، ثم يغني الشحرور، حينها تصبح ألوان الأشياء في المطبخ داكنة إلى أن تستحيل إلى ظلالٍ رمادية معتمة، عندها أكون في غاية السعادة.

10

في أول أيام عطلة عيد الفصح، استيقظتُ في الرابعة. هانا كانت تعمل في وردية الصباح. تستقل دراجتها إلى موقف الترام في حوالي الرابعة والربع، ثم تكون على متن الترام المتجه إلى شفيتزنجين في الرابعة والنصف. طيلة الطريق -كانت أخبرتني- غالبًا ما تكون عربة الترام خاوية. فقط في رحلة العودة تمتلئ.

استقليتُ الترام في المحطة الثانية. كانت العربة الثانية خاوية، وفي الأولى كانت هانا تقف بالقرب من السائق. ترددتُ إذا ما كان يجب عليّ الجلوس في العربة الأولى أم الثانية، ثم اخترتُ الثانية. كانت تبشر بخصوصية ما، عناق، قبلة، إلا أن هانا لم تأتِ. رأتني بالتأكيد منتظرًا على المحطة، ثم وأنا أستقل الترام، ولهذا توقف الترام، لكنها ظلتْ مع السائق تتحدث وتمزح، وكان بإمكاني رؤية ذلك.

مرّ الترام على محطة تلو الأخرى. لا أحد يقف منتظرًا. الشوارع كانتِ خاوية، فالشمسُ لم تشرق بعد، وتحتَ السماء، عديمة اللون، كان كل شيء شاحبًا في ضيها الشحيح: المنازل، السيارات المتوقفة، الأشجار الخضراء المتفتحة، والشجيرات المزهرة، ومراجل الغاز والجبال من بعيد. تحرك الترام ببطء. يبدو أن جدول الرحلة الزمني محكوم بأوقات الوقوف، والزمن المستغرق بين كل محطة وأخرى، لذا كان لا بد من إطالة زمن الرحلة بين المحطات. كنتُ عالقًا في الترام البطيء. في البداية كنتُ جالسًا، ثم قمتُ ووقفتُ عند مقدمة العربة، وحاولتُ

أن أنخز هانا بنظراتي، يجب أن تشعر بعينيَّ على ظهرها، بعد فترة استدارت، ونظرت إليّ من حين لآخر، ثم عادتْ، واستكملتْ حديثها مع السائق، واستمرت الرحلة. بعد إبلهيم لم تعد القضبان الحديدية موجودة على الطريق، بل استمرت على طولِ جسرٍ مليءٍ بالحصى، ثم أسرعت العربة مع إيقاعِ القضبان المعتاد. كنتُ أعرف أن مسار الترام يمتد عبرَ أماكنٍ كثيرة إلى أن ينتهي في شفيتزنجين، لكنني شعرتُ بأنني منبوذ، ومنفيّ عن العالِم الطبيعي، الذي يحيا فيه الناس، ويعملون ويعشقون، كأني محكوم عليّ أن أستقل للأبد عربةً خاوية متجهة إلى حيث اللامكان.

بعد ذلك رأيتُ محطة، مجرد مظلة وسط منطقة ريفية مفتوحة. جذبتُ السلك، الذي ينبه به محصلو التذاكر السائق لكي يتوقف، أو يستمر. توقف الترام. لم تتطلع هانا إليَّ، ولا السائق عند سماع الجرس، وعند نزولي من العربة، ظننتُ أنهما ينظران إليَّ ويضحكان، لكنني لم أكن متأكدًا، ثم تحرك الترام، وأنا أنظرُ إليه إلى أن اختفى خلف المجرى أولًا، ثم خلف التل. كنتُ أقفُ بينَ الجسر والطريق، حولي حقولٌ، وأشجارُ فاكهة، وأمامي مشتلٌ به صوباتٍ زجاجية للخضار. الهواءُ كانَ باردًا، ومليئا بتغريداتِ الطيور، وفوقَ الجبال أشرقتْ السماءُ الشاحبة بلونٍ وردي.

الرحلة على متن الترام كانت أشبهُ ما تكون بحلمٍ سيئ، لولا أنني أذكر جيدًا ما حدث، لكنتُ انسقتُ فعليًا إلى الاعتقاد بأنه كان حلمًا سيئًا، وكانَ الوقوفُ على محطة الترام، وأنا أسمعُ صوت الطيور،

وأرى الشمس طالعةً أقرب ما يكون للاستيقاظ، لكن الاستيقاظ من حلم سيئ لا يعني بالضرورة أنك استرحتَ منه، بل يجعلك فقط تعي جيدًا فظاعة ما حلمتَ به، والحقيقة المرعبة، التي لقيتها في الحلم. عدتُ أدراجي، وأنا أبكي، وغير قادر على التوقف عن البكاء إلى أن وصلتُ إبلهيم.

عدتُ طيلة الطريق للبيت مشيًا على الأقدام، وحاولتُ أكثر من مرة الحصول على توصيلة دون جدوى، وحين بلغتُ منتصف الطريق، مرَّ عليَّ الترام، وكان مزدحمًا، فلم أتمكنْ من رؤيةِ هانا.

كنتُ في انتظارها على عتبةِ شقتها، عند الظهر، بائسًا، قلقًا، وغاضبًا.

"هل عدّت للخروج من المدرسة مبكرًا؟".

"أنا في إجازة. ماذا جرى هذا الصباح؟".. فتحتْ الباب وتبعتُها إلى الشقة، ثم إلى المطبخ.

"ماذا تقصدْ بماذا جرى في هذا الصباح؟"

"لماذا تصرفتِ كما لو أنكِ لا تعرفينني؟ أردتُ...".

"تصرفتُ كما لو أنني لا أعرفك؟"، ثم استدارتْ إليّ وحدجتني بنظرةٍ باردة "أنتَ الذي لم تشأ أن تعرفني. صعدتَ إلى العربة الثانية، بينما كان يمكنك رؤيتي في العربة الأولى".

"لماذا إذًا استيقظتُ في الرابعةِ والنصف في أولِ أيامِ العطلة، واستقلَيتُ الترام إلى شفيتزنجين؟ فقط لأفاجِئُكِ، لأنني اعتقدتُ بأنكِ ستكونين سعيدة بذلك، واستقليتُ العربةَ الثانية...".

"يا للطفلِ المسكين. استيقظتَ في الرابعة والنصف، وفي يوم عطلتكَ أيضًا". لم أرَ سخريتها أبدًا من قبل، ثم هزّت رأسها "كيف يمكنني أن أعرف لماذا كنتَ متجهًا إلى شفيتزنجين؟ كيفَ ليّ أن أعرف أنكَ لم تقصد أن تبدو أنك لا تعرفني؟ إنه أمرٌ يخصكَ أنتَ. ولا يخصني، والآن هلّا انصرفت؟".

لا يمكنني وصف كم كنتُ غاضبًا "هذا ليسَ عدلًا، يا هانا. أنتِ تعرفين.. عليكِ أن تعرفي أنني استقليتُ الترام من أجلك فقط، كيف تصدقين أنني لم أشأ أن أبدو أنني أعرفكِ؟ لو أنني لم أشأ ذلك فعلًا، ما كنتُ استقليتُ العربة عمري".

"أووه اتركني وحدي.. لقد أخبرتُكَ بالفعلِ، ما تفعلهُ هو أمرٌ يخصكَ أنت ولا يخصني".

تحركتْ حتى صارت طاولة المطبخ بيننا، كلُّ شيءٍ في نظرتها، في صمتها، في ملامحها أخبرني بأني غريب، وعليَّ أن أرحل.

جلستُ على الكنبةِ. لقد عاملتني بطريقةٍ سيئة، وأردتُ أن أتحداها، لكنني لم أفلح في مواجهتها، وبدلًا من ذلك، هاجمتني هى، ثم صرتُ غير متأكدٍ، أيمكن أن تكون على صواب، ليس بشكل موضوعي، ولكن على نحو شخصي؟ هل أساءت فهمي؟ لا بد وأنها

أساءت فهمي؟ هل آذيتها، دونَ قصدٍ، وضد رغبتي، لكنني جرحتها على أي حال؟

"أنا آسف يا هانا. كلُّ شيءٍ سار بشكلٍ سيئ. لم أقصد مضايقتك لكن يبدو...".

"يبدو.. هل تعتقد بأن الأمر يبدو إليك أنكَ ضايقتني؟ أنتَ لا تملك القدرةَ على أن تضايقني. هلّا خرجتَ الآن من فضلك، نهائيًا؟ لقد كنتُ أعمل، وأريد أن أستحم، وآخذَ قسطًا من الراحة"، ثم تطلّعتْ إليَّ على نحوٍ آمر، وعندما لم أنهض من مكاني، هزّت كتفها باستهجانٍ، واستدارتْ، وفتحت الماء في حوض الاستحمام، ونزعتْ عنها ملابسها، عندئذٍ وقفتُ ومشيتُ. اعتقدتُ بأنني راحلٌ إلى الأبد، لكن بعدَ نصف ساعةٍ عدتُ لأقفَ على بابِ شقتها. تركتني أدخل، وقلتُ إن الأمر برمتهِ كان خطأً مني، وأنني تصرفتُ بلا تفكير، وبلا أي اعتبار، وبلا أي إحساسٍ بالحب. فهمتُ أنها كانتْ متضايقة، وأنها لم تكنْ متضايقةً لأنني لا يمكنني مضايقتها، وفهمتُ أنني لا يمكنني مضايقتها، بل إنها ببساطة لا يمكنها أن تسمح لي بأن أتصرفَ معها بتلكَ الطريقة. في النهاية، كنتُ سعيدًا أنها اعترفت بأنني جرحتُها، إذن فهي لم تكن غير متأثرةٍ، ولا غير عابئةٍ، كما كانت تتظاهر، على كلِ حال.

"هل سامحتني؟"

أومأت برأسها.

"هل تحبينني؟"

أومأت برأسها ثانيةً.

"حوض الاستحمامِ ما زالَ ممتلئًا تعال، سأحممك".

بعد ذلك تساءلتُ إن كانت تركت الماء في حوضِ الاستحمام لأنها كانت تعرف أنني سأعود، وأنها خلعت ملابسها لأنها كانت تعرف أنني لن أُخرج الأمر من رأسي، وأن ذلك سيعيدني ثانيةً، أو أنها فقط أرادت أن تنتصر في لعبة القوة.

بعد أن مارسنا الحب كنا نرقد بجوارٍ بعضنا البعض، وأخبرتها لماذا استقليتُ العربةَ الثانية، وليست الأولى، فمازحتني "أوَ كنتَ تريدُ أن تفعلها معي في الترام أيضًا؟ يا ولد.. يا ولد!"

كان الأمرُ يبدو كما لو أن السبب الحقيقي لشجارنا كان بلا معنى، لكن نتائجه كانت ذات معنى، فأنا لم أخسر فقط هذهِ المعركة، بل استسلمتُ تمامًا بعد شجارٍ قصير عندما هددتني بأنها ستبعدني عنها وتتحاشاني. في الأسابيع التالية لم نتشاجر أبدًا. كانت إذن توعدتني، كنتُ على الفورِ وبلا أيِّ شرطٍ أستسلم، وألقي على نفسي باللائمةِ كلها، واعترفتُ بأخطاءٍ لم أفعلها أبدًا، وبنوايا لم أقصدها أبدًا، وكانت كلما صارت باردة وصعبة المراس، كنتُ أتوسلُ إليها أن تكونَ طيبةً معي ثانيةً، وأن تسامحني وتحبُني. أحيانًا كان يخالجني شعور بأنها كانت تؤذي نفسها عندما تصبحُ باردةً، وصعبةَ المراس، كما لو أن ما كانت تهفو إليه هو دفء اعتذاراتي، وحججي وتوسلاتي.

أحيانًا كنتُ أعتقد بأنها كانت تستأسد عليّ فحسب، لكن على أي حالٍ لم يكن لدي اختيار.

لم أتمكن من التحدثِ معها في الأمر، فالتحدثُ عن شجاراتنا كان لا يؤدي إلا لمزيدِ من الشجار. مرة أو مرتين كتبتُ إليها خطابًا، إلا أنها لم تتجاوب معي، وعندما سألتها عن هذهِ الخطابات كانت تقول: "هل ستبدأ ذلك ثانية؟"

11

هذا لا يعني أنني وهانا لم نكن سعداء ثانيةً، بعد اليوم الأول من عطلة عيد الفصح. إننا لم نكن أبدًا أسعد من أسابيع أبريل تلك، وكما كان شجارنا الأول مفتعلًا كذلك كانت كلُّ شجاراتِنا، كان كل شيء يعمق من طقوسنا في القراءة، والاستحمام، وممارسةِ الحب، والرقاد بجوارِ بعضنا البعض، ويجعلنا أفضل حالًا، فضلًا عن اتهامها لي بأنني لا أرغب في أن يبدو عليَّ أنني أعرفَها، وعندما أردتُ أن أظهر معها لم تستطع أن تبدي اعتراضًا جوهريًا،" إذن أنتِ التي لا تريدين الظهور معي"، لم تشأ أن تسمع ذلك. لذا في الأسبوع التالي لعيد الفصح انطلقنا بالدراجة في رحلةٍ لمدةِ أربعة أيامٍ إلى فمفن، موزباخ، وملتنبرج.

لست أذكر ما الذي أخبرتُ به والديَّ. أنني أقوم برحلة مع صديقي ماتييس؟ مع مجموعة؟ أو أنني ذاهبٌ لزيارةِ صديق قديم كان معي في الفصل؟ على الأرجحِ كانت أمي قلقة، كالعادة، وعلى الأرجحِ وجد أبي، كالعادة، أن عليها أن تتوقف عن القلق. ألم ينجح في الفصل الدراسي، في حين لم يتوقع أحد أنني سأفعلُ ذلك؟

عندما كنتُ مريضًا لم أصرف أيَّ شيءٍ من مصروفي الشخصي، إلا أن ذلك لم يكن كافيًا لو أنني أردتُ أن أدفع لهانا أيضًا، لذا قررتُ أن أعرض مجموعة الطوابع الخاصةِ بي للبيع إلى تاجر طوابع بالقربِ من كنيسةِ الروح المقدس. إنهُ المحل الوحيد، الذي كُتب على

بابه أنه يشتري مجموعات الطوابع. نظرَ البائع إلى الألبوم الخاص بي، وعرضَ عليّ ستين مارك. أشرت إليه بتحفتي، طابع مصري مستوي الأطراف عليه هرمٌ، ومكتوب عليه في الكاتالوج أن سعره يساوي أربعمائةِ مارك. هزَّ كتفيهِ باستهانة. لو أنني مهتمُ فعلًا بمجموعتي، ربما يجبُ عليَّ أن أحتفظَ بها. أكان مسموحًا لي بأن أبيعها؟.. ما الذي سيقوله والداي بخصوصها؟ حاولت أن أساوم. لو أن الطابع ذا الهرم لم يكن قيمًا بهذه الدرجة فسأحتفظُ به، عندئذٍ سيعطيني فقط ثلاثينَ ماركًا، إذن فلقد كان الطابع ذو الهرم قيمًا على كل حال؟ في النهاية حصلتُ على سبعين ماركًا. شعرتُ بأنني خُدعت، لكنني لم أعبأ.

لم أكنْ المتحمس الوحيد. ما أدهشني، أن هانا قضت أيامًا دون راحةَ قبل الرحلة، تفكر ذهابًا وإيابًا فيما ستأخذ، ورتبت، وأعادت ترتيب علب الخضروات، وحقيبة الظهر، التي كنتُ اشتريتها لها، وعندما أردتُ أن أعرضَ عليها مسار الرحلة، الذي صنعتُه على الخريطة، لم ترغب في أن تنظر، أو حتى أن تسمع، "أنا بالفعلِ متحمسةٌ جدًا، فأنتَ ستقوم بإنجازِ الأمرِ على أحسنِ وجه يا ولد".

غادرنا يوم الاثنين من عيد الفصحِ. كانت الشمس مشرقة، واستمرت مشرقة على مدارِ الأيام الأربعة. الصباحات كانت مائلة للبرودة والنهارات دافئة، ليست دافئةً بالقدر، الذي يسمح بقيادةِ الدراجة، لكنها دافئة بما فيه الكفاية للخروج في رحلات خلوية. الغابات كانت سجاداتٌ خضراء، ذات بقعٍ ونقطٍ، ورقعٍ صفراء مائلة للخضرة، وخضراء لامعة، وخضراء فاتحة، وخضراء مائلة للزرقة، وفي

الأراضي المسطحة على طول نهر الراين، كانت أشجار الفاكهة البكر أينعتْ فعلًا، وفي أودنولد كانت الثمرات نبتت.

غالبًا ما كنا نستقل الدراجة جنبًا إلى جنب، ثم كنا نشير لبعضنا البعض على الأشياءِ، التي نراها: القلعة، الصياد، القارب في النهر، الخيمة، العائلة، التي تمشي على الضفة، ومحولات الكهرباء الأمريكية الهائلة، وحين كنا نغيّر الاتجاهات أو الطرق، كان عليَّ أن أكون في المقدمة، فهى لم تكن ترغب في أن تشغل بالها بمثل هذه الأمور، وخلاف ذلك، عندما تكون حركة المرور مكتظةً، فإنها كانتْ تستقل الدراجة خلفي، وأحيانًا العكس. كانت دراجتها ذات مكابح لها دعسات مخفية، وتروس، وكانت ترتدي فستانًا أزرقًا ذا تنورة كبيرة تتطاير أثناء مشيتها. استغرقت بعضٌ الوقت لأتوقف عن القلق من أن تشتبك تنورتها بالمكابح، أو أحد التروس، أو أنها قد تسقط. بعد ذلك أحببتُ أن أشاهدها، وهى تستقل دراجتها أمامي.

كم كنتُ أتطلع لتلك الليالي. كنت أتخيل أننا سنمارس الحب، ونذهب إلى النوم، نستيقظ، ثم نمارس الحب ثانيةً، ثم ننامُ ثانيةً، ثم نستيقظُ ثانيةً، وهكذا، ليلة بعد ليلة، إلا أن الوقت الوحيد، الذي استيقظتُ فيه ثانيةً كان في الليلةِ الأولى. كانتْ ترقدُ، وظهرها قبالتي، انحنيتُ عليها وقبلتُها، استدارتْ، واستلقت على ظهرها، وأخذتني بينَ ذراعيّها واحتضنتني، "يا ولد يا ولد"، عندئذٍ سقطتُ في النوم، وأنا فوقها. الليالي الأخرى نمنا على الفور، منهكين من قيادة الدراجة، والشمس والريح، وكنا نمارس الحب في الصباح.

لم تجعلني هانا فقط مسئولًا عن اختيار الاتجاهات والطرق، التي سنسلكها، بل كنتُ أنا الذي أختار الحانات، التي سنقضي فيها الليل، وأسجل اسمينا كأم وابنها، بينما كانتْ توقع هى فقط باسمها، وأختار الطعام من القائمة، ليس ليّ وحدي، بل لها أيضًا، "أحبُ ألا أقلق بخصوص شيءٍ أو تغيير أيٍّ شيء".

الشجار الوحيد، الذي حدث بيننا كان في مورباخ. كنتُ استيقظتُ مبكرًا، وارتديتُ ثيابي سريعًا، وتسللتُ خارجًا من الغرفة. أردتُ أن أحضر الفطور، وأرى إن كان هناك محل زهور مفتوحًا يمكنني الحصول منه على وردة لهانا. كنتُ قد تركتُ ورقةً صغيرة على الطاولة. "صباح الخير! ذاهب لإحضارِ الفطور، وسأعودُ على الفور"، أو كلمات من ذلك القبيل، عندما عدتُ كانت تقف في الغرفة نصف عارية ترتجف من الغضب، ووجهها شاحب البياض.

"كيف يمكنك أن تتركني هكذا؟"

وضعتُ صينيةَ الفطور مع الوردة، وأردتُ أن آخذها بين ذراعيّ، "هانا".

"لا تلمسني". كانت تحملُ الحزامِ الضيق، الذي كانت ترتديه حول فستانها، تراجعتْ خطوةً للوراء، وضربتني على وجهي بهِ. انجرحت شفتي، واستشعرتُ مذاق الدم، لم يكن الأمرُ مؤلمِا. كنتُ مصدومًا. طوّحت بهُ ثانيةً.

لم تضربني مرة أخرى. تركتْ ذراعها تسقط، وتركت الحزام يسقط، وانفجرتْ في البكاء. لم أرها أبدًا تبكي. فقدَ وجهها ملامحه. عيونٌ مفتوحةٌ على اتساعها، وفمٌ مفتوحٌ على اتساعه، وجفونٌ متورمة بعد الدمعات الأولى، وبقعٌ حمراءٌ على خديها ورقبتها، ومن فمها كانت تصدر أصواتٌ حلقيةٌ متحشرجة تشبه تأوهاتها المكتومة ونحن نمارس الحب. وقفت هناك، تتطلعُ إليَّ وسط دموعها. كان يجبُ عليَّ أن آخذها بينَ ذراعيّ، لكنني لم أستطع. ولم أعرف ماذا أفعل. في بيتي لم يبكِ أحدٌ بمثلِ هذهِ الطريقة، ولم نضرب بعضنا حتى بالأيدي، ناهيكَ عن حزامٍ جلدي. تحدثنا، لكن ماذا من المفترضِ عليَّ أن أقولهُ الآن.

اتجهتْ خطوتين إليَّ، وضربت بقبضتيها صدري، ثم عانقتني، الآن بوسعي احتضانها، كانَ كتفاها يرتجفان، وأطرقتْ بجبهتها على صدري، ثم تنهدتْ تنهيدةً عميقة، واستكانتْ بينَ ذراعيّ.

"هلاّ تناولنا الفطور؟"، تركتني، "يا إلهي، يا ولد، انظر لنفسك"، ثم أحضرت منشفةً مبتلة، ونظفت فمي وذقني، و"قميصُكَ مغطى بالدم". نزعت قميصي وبنطالي، ومارسنا الحب.

"ما الأمر؟ لماذا صرتِ غاضبةً هكذا؟".. كنا نرقدُ جنبًا إلى جنب هادئين وراضيين، لدرجةِ أنني ظننتُ أن كلَّ شيءٍ صفا الآن.

"ما الأمر.. ما الأمر، أنت دائمًا تسأل أسئلةً سخيفة، ألا تستطيع أن تترك الأمور كما هي".

"لكنني تركتُ لكِ قصاصةً ورقية".

"قصاصة ورقية؟".

نهضتُ. القصاصة لم يعد لها وجود على الطاولة، التي تركتها عليها. قمتُ على قدميّ، وبحثتُ بجوار الطاولة، وتحتها، وتحت الفراش، وفي الفراش، ولم أتمكن من العثورِ عليها "لستُ أفهم. لقد كتبتُ لكِ قصاصةً ورقية تقول إنني ذاهبٌ لشراءٍ فطور، وسأعودُ على الفور".

"أوَ فعلتَ ذلك؟ إنني لا أرى أي قصاصةٍ ورقية".

"ألا تصدقينني؟"

"إنني أحبُ أن أصدقك، لكنني لا أرى أي قصاصةٍ ورقية".

لم نتشاجر، فقد تكون هبة ريحٍ جاءت، وأخذت القصاصة إلى حيثُ يعلمُ الله؟ هل كان الأمر كلُّه مجرد سوءِ فهم، غضبها، شفتي المشقوقة، ووجهها المجروح، وقلة حيلتي؟

هل يجبُ عليَّ أن أواصل البحث، من أجل القصاصة، من أجل السبب، الذي أدى إلى غضب هانا، وسبب قلة حيلتي؟

"اقرأ لي شيئًا يا ولد". نظرت إليّ، والتقطت كتاب أيشندورف "من حياة حائر بائر"، وواصلتُ من حيثُ توقفنا. "من حياة حائر بائر"، كان كتابًا سهلًا، لأن يقرأ بصوتٍ عالٍ، أسهل من كتاب "إيميليا جالوتي"، وكتاب "مكائد وحب"، ومرةً أخرى راحت هانا

تتابعُ كلَّ شيءٍ باشتياق. أحبّت القصائد. أحبّت الاستعارات، والمقابلات، والمطاردات، التي كان على البطل أن يخوضها في إيطاليا. في الوقت ذاته لم يعجبها أنهُ يقومُ بالأمور الطيبة بلا مقابل، وأنه لم يحقق شيئًا، ولم يستطع فعل أي شيءٍ، بالإضافة إلى أنه لم يكن يريد فعل شيءٍ. كانت مشتتة في كل الاتجاهات، فبعد ساعاتٍ من توقفي عن القراءة، كانت ما يزال في جعبتها المزيد من الأسئلة "جابي ضرائب، لم تكن وظيفةً ذات شأن".

كذلك، وكما تحدثتُ عن شجارنا بكل تفصيل أودُّ أن أتحدثُ عن سعادتنا، فالشجار جعل علاقتنا أكثر حميمية، لقد رأيتُها تبكي. هانا، التي بكتْ كانتْ أقرب إليَّ من هانا، التي كانتْ فقط قويةً. بدأت تُظهر جانبًا لطيفًا لم أرهُ أبدًا من قبل. ظلت تنظر إلى شفتي المشقوقة، وتتحسسها برفق باستمرار إلى أن شُفيّت.

مارسنا الحبَّ بطريقة مختلفة. لوقتٍ طويل كنت تركتُ نفسي لها، ولقدرتها على الامتلاك، بعد ذلك كنتُ تعلمتُ أيضًا أن أمتلكها. في هذه الرحلة، وبعد ذلك، لم نعد مجرد شخصين يتبادلان امتلاك بعضهما البعض.

عندي قصيدة كنتُ كتبتها في ذلك الوقت. شعريًا هى ليست قصيدة قيّمة. في ذلك الوقت كنتُ مغرمًا بريلكه وجوتفريد بن، وأعرف أنني كنتُ أريد محاكاتهما، لكن يمكنني أيضًا أن أرى كم كنا قريبين جدًا في ذلك الوقت، وها هى القصيدة:

عندما نفتحُ نفسينا

أنتِ بنفسكِ إليّ وأنا بنفسي إليكِ

عندما نمتزجُ

أنتِ فيَّ وأنا فيكِ

عندما نتلاشى فيّ أنتِ وفيكِ أنا

عندئذٍ هل أكونُ أنا أنا

وأنتِ أنت.

12

بينما لا أملك ذاكرةً لكم الأكاذيب، التي أخبرتُ بها والديَّ عن رحلتي مع هانا، لكنني أتذكر جيدًا الثمن، الذي كان عليَّ دفعه للبقاء وحدي في البيت في آخرِ أسبوعٍ للعطلة. لا أذكر إلى أين تحديدًا ذهب والداي، وأخي الأكبر وأختي. المشكلة كانت في أختي الصغرى، فمن المفترض أنها كانت ستذهب، وتقيم مع عائلة أحد أصدقائها، لكن بما أنني كنتُ سأظلُّ في المنزل، فإنها أرادت أن تكون في المنزل معي أيضًا. والداي لم يرغبا في ذلك، لذا كان من المفترض أن أذهب، وأقيم مع أحد أصدقائي أيضًا.

حين أستعيد ما جرى، أجد أنه أمر لافت أن يقبل والداي أن يتركاني، وأنا ابن خمسة عشر عامًا في المنزل وحدي لمدة أسبوع. هل لاحظا الاستقلالية، التي أخذت تتنامى بداخلي منذ قابلت هانا؟ أم أنهما ببساطة تقبلّا حقيقة أنني نجحتُ في الصف الدراسيّ، رغم شهور مرضي، وقررا أنني صرتُ أكثر مسؤولية، وأجدر بثقتهما عما كان يبدو عليَّ في ذلك الوقت؟ ولا أذكر أنني أُستدعيتُ لأوضّح سبب الساعات الكثيرة، التي كنت أقضيها في بيت هانا. على ما يبدو أن والدايّ صدقا أنني صرتُ الآن في كاملِ عافيتي مرةً أخرى، لذا فإنني أريد أن أكون مع أصحابي أكبرِ قدرٍ ممكن، سواء كنا نستذكر دروسنا أو نستمتع فقط بأوقات فراغنا، فضلًا على أنه حين يكون للآباء قطيع من أربعة أطفالٍ، فإن انتباههم لا يمكن أن يُلِّم

بكل شيء، لكن بدلًا من ذلك سيركزون خصيصًا مع المتسبب في غالبية المشاكل في الوقت الراهن، وتسببتُ في كثير من المشاكل لوقت كافٍ، لذا استراح والدايَّ لما استرددتُ عافيتي، وأنني سأنتقل إلى الصف التالي.

عندما سألتُ أختي الصغيرة عن الثمن، الذي تريده من أجل أن تذهب لتقيم مع صديقتها، وأظلُّ أنا في المنزل، طلبت بنطالًا من الجينز -كنا نطلق عليهم في ذلك الوقت البلوجينز، أو البنطال المرقط- ونيكي، وهى ماركة لسترة مخملية، وكان هذا منطقيًا، ففي ذلك الوقت كان ما يزال الجينز شيئًا مميزًا، وأنيقًا، ويبشر بالتحرر من موضة البدل المفصلة ذات التعاريج والفساتين ذات الورود الكبيرة. تمامًا كما كان عليَّ ارتداء أشياء عمي، كذلك كان على أختي الصغيرة ارتداء ملابس أختها الكبيرة، لكنني لا أملك مالًا.

"إذن اسرقهما!"، قالت أختي الصغيرة في رصانةٍ تامة.

كان الأمر سهلًا على نحو مذهل. كنتُ أجرب بناطيل جينز مختلفة، وأخذتُ بنطالًا من مقاسها نفسه معي إلى غرفة تبديل الملابس، وحملته معي إلى خارج المحل، بعد أن خبأته تحت بنطال بدلتي الواسع فوق بطني. السترة سرقتُها من القسمِ الرئيسي بالمحل. ذهبنا أنا وأختي الصغيرة في اليوم نفسه، وتمشينا من رفٍ إلى رف في قسم الموضة إلى أن وجدنا الرف المناسب والسترة المناسبة. في اليوم التالي مشيتُ مسرعًا خلال القسم، وأمسكتُ بالسترة، وخبأتُها تحت جاكيت بدلتي، وخرجتُ وكانت تنتظرني بالخارج. في اليوم التالي،

الذي سرقتُ فيه قميص نوم حريري لهانا، لاحظني مراقب المحل، فانطلقتُ أعدو ناجيًا بحياتي، وهربتُ بصعوبة، ولم أعد ثانيةً إلى ذلكَ المحل لمدة سنواتٍ بعد ذلك.

منذ ليالينا، التي قضيناها معًا في الرحلة، اشتقتُ كلَّ ليلة لأن أتحسسها بجواري، أن أتكوّرَ حولها، بطني قبالةَ مؤخرتها وصدري قبالةَ ظهرها، وأن أريحَ يدي على نهديها، وأن أجدها تحت يدي عندما أستيقظ في الليل، وأحصل عليها، وأن أدفع قدمايّ فوق قدميها، وأن أضغط وجهي قبالةَ كتفها. أسبوعٌ لوحدي في البيت كان يعني سبع ليالٍ مع هانا.

ذات مساء دعوتُها إلى المنزل، وطبختُ لها. وقفتْ في المطبخ، وأنا أضعُ اللمسات الأخيرة على الطعام. وقفت بين درفتي الباب المفتوح والفاصل بين غرفة السفرة وغرفة المعيشة، وأنا أضع الطعام على الطاولة، وجلستْ على السفرة المستديرة، حيث اعتاد أبي أن يجلس، بينما أخذتْ تنظر حولها.

تفحصتْ عيناها كلَّ شيءٍ: الأثاث، البيانو، ساعة جدّي القديمة، الصور، خزانةُ الكتب، الصحون والسكاكين والملاعق على الطاولة. عندما تركتها وحدها لأعدّ الحلوى، لم أجدها على الطاولة حين عدت. كانت تنتقل من غرفة إلى غرفة، ثم توقفتْ في مكتب والدي. استندتُ بهدوءٍ إلى جانب الباب أشاهدها. أطلقتْ عينيها تطوف على أرفف الكتب، التي ملأت الحوائط، كما لو أنها تقرأ نصًا، بعد ذلك ذهبت إلى رفٍ، ورفعت سبابتها اليمنى أعلى من

مستوى صدرها، ومررتها ببطءٍ على ظهرِ الكتب، وانتقلت إلى الرفِ، الذي يليه، ومررت إصبعها من كتابٍ لآخر، وهي تقطعُ الغرفةَ كلها مشيًا، وتوقفتْ أمام النافذة، وحدّقتْ في الظلام خارجها، وفي انعكاسِ أرفف الكتب، وفي انعكاس صورتها.

إنها واحدة من صور هانا، التي ظلّت معي، واحتفظت بها، بحيث يكون بوسعي استعراضها على شاشة ذهني، ومشاهدتها دون تغيُّرٍ أو تلف. أحيانًا لا أفكر في هذه الصور لفترةٍ طويلة، إلا أنها تعود دائمًا إلى رأسي، وعندئذٍ يتحتم عليَّ أحيانًا أن أستعرضها سريعًا من خلال آلة العرض الخاصة بذهني وأشاهدها. صورة هانا، وهي تضعُ جواربها في المطبخ، وأخرى لهانا، وهي تخطو أمام حوض الاستحمام تحملُ المنشفة على طولِ ذراعيها المفرودتين، وصورةٌ أخرى لهانا، وهي تستقل دراجتها مع تنورتها، التي تتطاير مع الهواءِ المندفع في أثناء حركتها، ثم صورة هانا في مكتب أبي. إنها ترتدي فستانًا مخططًا باللون الأزرق والأبيض، وهو ما كنا نطلق عليه بلوزة في ذلكَ الوقت. إنها تبدو صغيرة السن فيه، بعد أن مرّتْ بإصبعها على ظهرِ الكتب، أخذتْ تتطلع في عتمة النافذة، ثم ها هي الآن تستدير إليّ بسرعة كافية لجعل تنورتها تدور حول ساقيها للحظةٍ قبل أن تتهادى في نعومةٍ مرةً أخرى. عيناها كانتا متعبتين.

"هل هذهِ الكتب قرأها أبوك، أم كتَبها أيضًا؟"

كنتُ أعرف أن هناك كتابا عن كانط، وآخر عن هيجل كان أبي كتبهما، بحثتُ عنهما، وأريتُها إياهما.

"اقرأ لي شيئًا منهما.. رجاءً يا ولد".

"أنا...". لم أكن أريد، لكن لم أحب أن أرفض طلبها أيضًا. أخذتُ كتاب والدي عن كانط، وقرأتُ لها فقرةً عن التحليل والمنطق لم يفهم كلانا منها شيئًا "هل هذا كاف؟"

نظرت إليّ، كما لو أنها فهمت العبارة كلها، أو كما لو أنّهُ لا يهم الأمر سواء كان مفهومًا أو لا "هل ستكتبُ كتبًا مثل هذه يومًا ما؟"

هززتُ رأسي.

"هل ستكتبُ كتبًا أخرى؟"

"لا أعرف."

"هل ستكتب مسرحيات؟"

"لا أعرف يا هانا."

أومأت برأسها، وبعد ذلك تناولنا الحلوى، وذهبنا إلى شقتها. كنتُ أودُ لو نامتْ معي في سريري، إلا أنها لم ترغب في ذلك. شعرتْ كالغريبة في بيتنا. لم تقلْ ذلك صراحة، ولكن بالطريقة، التي وقفتْ فيها في المطبخ، أو بين درفتي الباب المفتوح، أو في مشيّها من غرفةٍ لغرفة، أو في تفحصها لكتب أبي، وفي جلوسها معي على العشاء.

أعطيتُها قميص النوم الحريري. كان بذنجاني اللون، وله حمالات ضيقة، تركتْ كتفيّها وذراعيها عاريّن، ومنسدلًا حتى كعبيّها. كان

براقًا ومتلألئًا، وكانت هانا مسرورة، وتضحك بابتهاج. نظرتْ إلى نفسها ولفّتْ، ورقصت في بضع خطواتٍ، ثم نظرتْ لنفسها في المرآة، وتفحصتْ صورتها، واستكملتْ الرقص.

وهذه أيضًا كانت واحدة من صور هانا، التي ظلّت معي.

13

دائمًا ما كنتُ أشعر بأن بداية عام دراسي جديد هى بمثابة حد فاصل، وكان الانتقال من الصف العاشر إلى الحادي عشر لهو حدٌّ فاصلٌ كبير. كان فصلي تفرق بين ثلاثة فصولٍ أخرى مماثلة. قلةٌ قليلة من الطلبة أخفقت في اجتياز الصف الدراسيّ، لذا دُمجت الفصول الأربعة الصغيرة في ثلاثة فصول أكبر.

مدرستي كانت تقبل عادةً الأولاد فقط، ومع قبول الفتيات، كان عددهنَّ قليلا لدرجة لا تسمح بتقسيمهنَّ بالتساوي على الفصول المماثلة، بل على فصل واحد، ثم بعد ذلك على فصل ثان وثالث إلى أن صار عددهنَّ الثلث في كل فصل. لم يكنْ في سنتي الدراسية عدد كافٍ من الفتيات لنقلهنّ إلى فصلي السابق. كنا الفصل الرابع من الصف نفسه، وكلنا أولاد، لذا كنا الفصل، الذي تفرق وأُعيد توزيعه، وليس فصلًا من الفصول الثلاثة الأخرى.

عرفنا ذلك مع بداية السنة الدراسية الجديدة. استدعانا مدير المدرسة إلى الفصل، وأخبرنا لماذا وكيف وُزعّنا. مع ستة طلاب آخرين، اجتزتُ الأروقة الخاوية إلى أن وصلنا إلى الفصل الجديد. حصلنا على المقاعد المتبقية، وكانَ مقعدي في الصف الثاني. كانت هناك مقاعد فردية، لكن في الصفوف الثلاثة كانت توجد مقاعد ثنائية. جلستُ في الصف الأوسط. على يساري زميلٌ من الفصل القديم، رودولف بارجين، ولدٌ متين البنية، هادئ يُعتمد عليه في

الشطرنج، ولعب الهوكي، ولم تربطني به علاقة قوية في الفصل السابق، لكن سرعان ما أصبحنا أصدقاء جيدين، وعلى يميني من الجانب الآخر من الممر الفاصل بين المقاعد كانت تجلس الفتيات.

جارتي كانت صوفي، ذات شعر بني وعيونٌ بنية، وبشرة صيفية بنية، مع شعيرات ذهبية صغيرة على ذراعيها المكشوفتين، بعد أن جلستُ، ونظرتُ حولي، ابتسمتْ لي.

ابتسمتُ لها، وشعرتُ بشعور طيب، كنتُ متحمسًا لبداية جديدة في فصل جديد مع وجود الفتيات. كنتُ لاحظتُ زملائي في الصف العاشر، سواء كان عندهم فتياتٌ في فصلهم أم لا، خائفين منهن، أم تحاشوهنَّ، أم استعرضوا أمامهنَّ، أم هاموا بهن. كنتُ عرفتُ طريقي إلى النساء، وكان بمقدوريَّ أن أكون على أريحيةٍ ومنفتحًا بطريقة ودودة. أحبت الفتياتُ ذلك. ستكون أموري على ما يرام معهنَّ في الفصل الجديد، وهو ما يعني أن أموري ستكون على ما يرام مع الأولاد أيضًا.

هل يشعر الكلَّ على هذا النحو؟ عندما كنتُ صغيرًا كنتُ على الدوام إما كثير الثقة بنفسي أو مزعزعًا، وكنتُ أشعر إما بأنني عديم الفائدة تمامًا، غير جذاب، بلا قيمة، أو ناجحًا جدًا، وأن كل شيء أفعله مقدّر له النجاح. حين كنتُ أشعر بثقة في نفسي، كان بوسعي تخطي أصعب التحديات، إلا أن أصغر نكسة كانتْ كافيةً بأن تجعلني متأكدًا بأنني عديم القيمة تمامًا. إن استعادتي لثقتي بنفسي لا علاقة لها بالنجاح، فكلّ هدفٍ وضعته لنفسي، وكلُّ تقديرٍ رغبتُ فيه جعل

أيَّ شيء فعلته يبدو تافهًا بالشبه، فأيًّما كان ما لاقيتهُ، فشلًا كان أو انتصارًا، يعتمد تمامًا على مزاجي الخاص. مع هانا صارتْ الأمور على ما يرام لأسابيع، رغمِ شجاراتنا، ورغم حقيقة أنها أبعدتني مرارًا وتكرارًا، ومرارًا وتكرارًا كنتُ أزحفُ عائدًا إليها، وبذلك بدأ الصيفُ في الفصلِ الدراسي الجديد على أحسنِ حال.

ما زلتُ أذكر حجرة الفصل كأني أراها الآن: في المقدمة الباب الأمامي، وعلى طول الحائط الأيمن قائم خشبي به مشاجب للملابس، وعلى اليسار صف من النوافذ يطلُّ على جبل هايليجنبرج، وعندما نقف بالقرب من الزجاج في فترات الاستراحة نرى الشارع والنهر والوديان على الضفة المقابلة، في المقدمة سبورة سوداء، وقوائم للخرائط والرسوم البيانية، ومكتب للمدرس مع مقعد على منصة ارتفاعها قدم واحد، والحوائط المطلية بدهان زيت أصفر، حتى مستوى الرأس، وأعلاه، باللون الأبيض، ومن السقف تدلى مصباحان لبنيان على هيئة كرة. لم يكن هناك شيءٌ زائدٌ على الحاجة في الغرفة، لا صور، ولا نباتات، ولا كرسيٌّ زائدًا، ولا خزانة للكتب منسية، ولا دفاتر أو طباشير ملونة، عندما تجول بعينيّك، فإنهما يتجهان، إما إلى خارجِ النافذة، أو إلى الجالس بجوارك، عندما رأتني صوفي، وأنا أتطلع إليها، استدارت وابتسمت ليّ.

"بيرج، صوفي قد يكون اسمًا يونانيًا، لكن ذلك ليس سببا لأن تتطلع في زميلتك في حصة اللغة اليونانية. ترجم!"

كنا نترجم الأوديسا، وكنتُ قرأتها باللغة الألمانية وأحببتُها، وما زلتُ أحبُّها إلى اليوم، وعندما جاء دوري استغرقني الأمر بضع ثوان فقط لكي أعثر على المكان المحدد، وأبدأ في الترجمة، بعد أن توقفَ المدرس عن ممازحتي بخصوص صوفي، وبعد أن توقف الفصل عن الضحك كان ثمة شيءٍ آخر جعلني أتلعثم. نوسيكا•، ذاتَ الذراعينِ البيضاوين، البتول، التي تشبهُ البشر في جسدها وملامحها، هل أتخيَّلها مثلَ هانا أم مثل صوفي؟ كان لا بدَّ أن تكون واحدةً من الاثنتين.

14

عندما تتوقف محركات الطائرة، فهذا لا يعني نهاية الرحلة. الطائرات لا تسقط من السماء كالحجارة. إنها تنزلق، حاملة الركاب الهائلة ذات المحركات المتعددة، لثلاثين، أو خمسة وأربعين دقيقة، وتتحطم فقط عندما تهبط، أما الركاب فلا يلاحظون شيئًا، فالطيران له الشعور نفسه سواء كانت تعمل المحركات أم لا. شعور هادئ، لكنه فقط يكون أكثر هدوءًا، فالريح تحمل المحركات، كما تحمل الذيل والأجنحة، ثم عند نقطةٍ ما، تبدو الأرض أو البحر، من خلال النظر عبر النافذة، قريبين لدرجةٍ خطيرة، لكن قد يكون هناك ثمة فيلم معروض، والمضيفون والمضيفاتِ أغلقوا النوافذ، وقد يُعجب الركاب بهدوءِ الطيران الشديد.

ذلك الصيف كان منزلقًا لحبّنا، أو بالأصح، لحبّي لهانا، فلا أعرفُ شيئًا بخصوصِ حبِّها لي.

واصلنا طقوسنا، طقس القراءةِ بصوتٍ عالٍ، والاستحمام، وممارسةِ الحب، ثم الرقاد معًا. قرأتُ لها "الحرب والسلام" بكلِّ تفسيرات تولستوي عن التاريخ، والرجال العظام، وروسيا، والحب والزواج، لا بدَّ وأن هذه القراءة استمرت لأربعينَ أو خمسين ساعة، ومرةً أخرى راحت هانا تتتبع قراءة الكتاب بحماسة، لكن الأمر كان مختلفًا هذه المرة، فقد سحبت أحكامها الشخصية، ولم تجعل من ناتاشا وأندري وبيير جزءًا من عالمها، كما فعلت مع لويز وإميليا،

لكنها دخلت عالمهم بالطريقةِ، التي يخوضُ بها الواحد مندهشًا رحلةً طويلةً، أو يدخل قلعة مسموحٌ له بزيارتها، بل حتى الإقامةَ فيها إلى أن يشعر بأنها صارت بيته، ولكن دون أنْ يسقط عليها تهويماته بالفعل. كل ما قرأته لها من قبل كنتُ أعرفه. "الحربُ والسلام"، كانت جديدةً عليَّ أيضًا، فلقد خضنا في الرحلةِ الطويلة معًا.

فكرنا أن نعطي لبعضنا اسمًا من أسماء الحيواناتِ الأليفة. بدأت تدعوني، ليس فقط يا ولد، ولكنها أعطتني أسماء وصفات أخرى، مثل يا ضفدع يا بوبي، يا لعبة، يا وردة، أما أنا فظللت على اسم هانا إلى أن سألتني "أي حيوانٍ تتخيَّله عندما تحتضنني وتغلق عينيكَ، وتفكر في الحيوانات؟".. أغلقت عينيَّ، وفكرتُ في الحيوانات. كنا نرقد منكمشينَ قربَ بعضنا البعض، رأسي على رقبتها، ورقبتي على نهديها، ويدي اليمنى تحتَ ظهرها، ويدي اليسرى على مؤخرتها، وأطلقتُ ذراعيَّ ويديَّ على ظهرها العريض، وأردافها الصلبة، ومؤخرتها القوية كما شعرتُ بصلابةِ نهديها، وبطنها قبالةَ عنقي وصدري. بشرتها كانت ناعمة ولطيفة الملمس، والجسدُ من تحتها قوي ومتين، وعندما وضعتُ يدي على سمانتها، شعرتُ بالنبض المستمر لحركة عضلاتها. ذكرني الأمر بالطريقة، التي ينبضُ بها جسد الفرس ليطردَ عنهُ الذباب. "فرس".

"فرس؟"، وعدلت من نفسها ونهضت، ونظرت إليّ محدقةً فيَّ بدهشة.

"ألا تحبينهُ؟ لقد جاء إلى ذهني لأنَّ ملمسكِ طيب وناعم ولطيف ومن تحتِّه قوةٌ وصلابة، ولأن سمانتكِ تنتفض". أوضحتُ وجهةَ نظري. نظرت إلى عضلات سمانتها "فرس"، هزّت رأسها، "لا أعرف...".

لم تكن تلكَ طريقتها المعتادة. كانت عادةً واضحة الفكر بشكلٍ مطلق، سواءً في القبول أو الرفض، أمام نظراتها المندهشة، كنتُ جاهزًا لسحب كلُّ ما قلتُه إن كانَ ذلك ضروريًا، ولوم نفسي، ثم الاعتذار، أما الآن فحاولتُ أن أحبِّبها في الفر، "بوسعي أن أناديكي يا جوادي، أو يا مُهرة، أو يا فرسي الصغير، عندما أفكر بالفرس أنا لا أفكرُ في أسنانِه، ولا وجهه، أو أيِّ شيءٍ مما يقلقكِ، بل أفكرُ بشيءٍ جيد وناعم ودافئ وقوي، أنتِ لستِ جروًا ولا قطة وأيًّا ما كان فيك من النمرة، فإن ذلك الكائن الشرير لا ينتمي إليكِ أيضًا".

استلقت على ظهرها، وذراعاها خلف رأسها. الآن كان دوري أن أنهض لأنظر إليها. كانت تنظر في الفراغ، وبعد فترة أدارت وجهها إليّ، وكانت تعابير وجهها حميمة، "نعم يروق لي أن تناديني بالفرس، أو تلكَ الأسماء الأخرى للفرس، هل تستطيع أن تشرحهم لي ثانيةً؟"

ذات مرةٍ ذهبنا إلى مسرح البلدة المجاورة لكي نرى مسرحية المكائد والحب. كانت تلك هى المرة الأولى، التي تكون فيها هانا في المسرح. أحبَّت الأمر برمتهِ، بدءًا من العرض المسرحيّ إلى الشمبانيا والافتتاح. وضعتُ يدي حول وسطها، ولم أهتم إذا ما اعتقد الناس بأننا حبيبان، وكنتُ فخورًا بأنني غير عابئٍ. في الوقتِ نفسه أعرفُ

بأننا إذا كنا في المسرح الموجود في بلدتنا كنتُ سأهتم، فهل كانت تعرفُ ذلك أيضًا؟

عرفتْ بأن حياتي ذلك الصيف ما عادت تدور حولها وحدها، بل وحول مدرستي ودراستي، ورويدًا رويدًا بدأتُ آتي إليها، بعد أوقات الظهيرة في حمام السباحة، حيث يجتمع فصلنا، ويقوم بأداء واجباته المدرسية، ونلعب معًا كرة القدم والطائرة، والتزلج، ونغازل بعضنا البعض. ذلكَ كان المكان، الذي نوطدُّ فيه علاقتنا، كان يعني لي الكثير أن أُشارك في ذلك، وأن أنتمي إليه. في الواقع كنتُ أجيء بعد الآخرين، أو أغادرُ قبلهم، بحسب جدول هانا، ولم يقلل ذلك من مكانتي، ولكنَّه جعلني مثيرًا للاهتمام. كنتُ أعرف ذلك، كما كنتُ أعرف بأنني لم يفوتني الكثير، بل صار ينتابني شعورٌ في كثير من الأحيان بأنه لن يحدث شيءٌ مطلقًا هنالك طلما أنني غير موجود، ولم أجرؤ على أن أسأل نفسي إذا ما كان الأفضل لي أن أكون في حمام السباحة، أو مع هانا، لكن في عيد ميلادي في شهر يوليو، كانت هناك حفلة مخصصة لي في حمام السباحة، وكان من الصعب انتزاع نفسي منها، خاصة أنهم لم يريدونني أن أذهب، حينها استقبلتني هانا المتعبة، وهي في مزاجٍ سيئ، لم تكن تعرف بأن اليوم هو عيد ميلادي، عندما سألتها عن عيد ميلادها أخبرتني بأنَّهُ في الحادي والعشرين من أكتوبر، ولكنَّها لم تسألني عن عيد ميلادي. لم تكن في مزاجٍ أسوأ مما اعتادتْ أن تكون عليه، وهي متعبة، لكنني كنتُ متضايقًا من مزاجها السيئ، وأردتُ أن أكونَ في مكانٍ آخر، في حمامِ السباحة، بعيدًا مع أصحابي في الفصل نخوضُ في أحاديثنا وألعابنا،

ومغازلاتنا. عندئذٍ صار مزاجي سيئًا، وبدأنا الشجار، وعاملتني هانا كأنني نكرة، إلا أن خوفي من فقدها عاد إليّ، فتنازلت وتوسلتُ لها أن تعذرني حتى تقبلتني ثانيةً، لكنني كنتُ ممتلئًا بالمرارة.

15

بعد ذلك بدأتُ في خيانتها.

ولا أقصدُ أنني بحثُ بأي سرٍ من أسرار هانا، أو عرّضتُ بها، فأنا لم أشِ بأي شيءٍ يجبُ عليَّ كتمانه، بل أخفيتُ شيئًا كان عليَّ البوح به، فأنا لم أعترفُ به. أعرفُ أنَّ الإنكار هو شكلٌ غير معتاد من أشكال الخيانة، فظاهريًا من المستحيل معرفة لو أنك تتنكر لشخصٍ ما، أو ببساطة تتوخى الحذر، لكونك تراعي مشاعر الآخرين، أو لتحاشي الحرج، ومسبباتِ الغضب، لكنَّك، يا من تتنكر لأحدٍ، تعرف ماذا تفعل، فالإنكار ينزع دعامات أي علاقة تمامًا، مثل أنواع الخيانات الأخرى الصريحة بالتأكيد.

ما عدتُّ أذكر متى أول مرة أنكرتُ فيها هانا، منذ تطورت صداقاتُ أوقات ما بعد الظهيرة الصيفية في حمام السباحة. فضلًا عن الولد، الذي كان يجلسُ بجواري في المدرسة، وأعرفَهُ من الفصل السابق، الشخص الذي راقني، خصيصًا في الفصلِ الجديد، وكان يدعى هولجر سكلتر، وكان مهتمًا مثلي بالتاريخِ والأدب، ومعه شعرتُ بارتياح على الفور. هو الآخر سرعان ما انسجمَ مع صوفي، التي تسكن خلف منزلنا ببضعة مبانٍ، لذا كنا نذهب إلى حمامِ السباحة، ونعود معًا. في البدايةِ قلتُ لنفسي إنني لستُ قريبًا من أصدقائي بالشكل الكافي لكي أخبرهم عن هانا، ثم بعد ذلك لم أجد الفرصة المناسبة، اللحظة المناسبة، والكلمات المناسبة. في النهاية كان

الوقت فات لإخبارهم عن هانا، وتقديمها مع باقي أسرار شبابي الخاصة. قلتُ لنفسي إن الحديث المتأخر عنها سيعطي انطباعًا غير صحيح، بأنني أخفيتُ علاقتي بهانا لفترة طويلة لأن علاقتنا لم تكن صحيحة، وأنني كنتُ أشعرُ حيالها بالذنب، لكن لا يهُم ما كنتُ أخدع به نفسي، أعرف بأنني كنتُ أخون هانا عندما تركتُ أصدقائي يعرفونَ كل كبيرة وصغيرة عن حياتي، ولم أقلْ لهم شيئًا بخصوص هانا.

الحقيقة أنّهم عرفوا بأنني لم أكن صريحًا تمامًا معهم، وهذا فقط ما جعل الأشياء تسوء. ذاتَ مساء داهمتني فيه أنا وصوفي عاصفةٌ رعدية في طريق عودتنا للبيت، فلذنا بمظلةٍ معلقة في حديقةٍ في نونمر، ولم تكن فيها مبان جامعية في ذلك الوقت، فقط حقول وحدائق. أرعدتْ السماء وومض البرق، وهبّت الرياح وأمطرتْ زخاتٍ غزيرة، بينما انخفضتْ درجة الحرارة عشرِ درجاتٍ. كنا متجمدين، فوضعتُ ذراعي حولها.

"أتعرفين..."، لم تكن تنظر إليّ، بل إلى المطر.

"ماذا؟"

"كنتَ مريضًا بالالتهاب الكبدي لمدةٍ طويلة، فهل هذا ما يشغل بالك؟ هل تخشى أنك لن تتحسن ثانيةً؟ هل قال الأطباء شيئًا ما؟ وهل يجب عليكَ أن تذهبَ إلى العيادة كلَّ يوم من أجل إجراءِ التحاليل ونقل الدم؟"

هانا صارت كالمرض، شعرتُ بالخزيّ، لكنني بالفعل لم أستطع التحدث عن هانا، "لا لا يا صوفي، لم أعد مريضًا، وكبدي في حالةٍ عادية، وفي غضونِ عام سيكونُ بوسعي شربُ الكحول لو أردتْ، لكنني لا أريد، الذي..." عند حديثي عن هانا، لم أشأ أن أقولَ "الذي يضايقني". "هناكَ سببٌ آخر لوصولي متأخرًا ورحيلي مبكرًا".

"ألا تريد أن تتحدث عن الأمر، أم أنك تريد، ولكن لا تعرف كيف؟"

هل كنتُ لا أريد، أم أنني لا أعرف كيف؟ لم أعرف الإجابة، لكن بينما نحن واقفون هناك تحت البرق، ومع انفجارات صوت الرعد، التي تعصف فوق رؤوسنا، وزخّات المطر، وكلانا متجمدين، وندفئ بعضنا بعضًا قليلًا، انتابني شعورٌ بأنني كان عليَّ أن أخبرها، من بين كلِّ الناس، عن هانا.

"ربما بوسعي أن أخبركِ في وقتٍ آخر".

لكن لم يكن هناك أبدًا وقتٌ آخر.

16

لم أكتشف أبدًا ما الذي كانت تفعله هانا حين لا تكون في العمل أو لسنا معًا، وعندما سألتُها، تملّصتْ من أسئلتي. لم نملكْ عالمًا مشتركًا، فهى أعطتني في حياتها المساحة، التي أرادتْ أن تعطني إياها، وكانَ عليَّ أن أرضى بذلك، فالرغبة في المزيد، وحتى الرغبة في معرفة المزيد، كانت وقاحةً مني، وإذا كنا على ما يرام وسألتُها شيئًا ما، حيث كلَّ شيء ممكن ومتاح الأن، عندئذٍ تروغ من أسئلتي، بدلًا من رفضها صراحةً. "يا للأشياءِ، التي تسأل عنها، يا ولد!"، أو أنها كانتْ تأخذ يدي، وتضعها على بطنها "هل تحاول صنع ثقوبٍ في بطني؟"، أو أنها كانت تعدُ على أصابعها، "غسيل، وكيّ، وكنس، ومسح، وتسوق، وطبخ، وهز شجر البرقوق، والتقاط ثمر البرقوق، وإحضار ثمر البرقوق وطبخه بسرعة، قبلَ أن" –وعندئذٍ كانت تمسكُ بالإصبع الخامس في يدها اليسرى بإبهامها وسبابتها اليمنى– "يأكله الصغير كله لوحده".

لم ألتقها أبدًا مصادفةً في الشارع، أو في محل أو في السينما، رغم أنها أخبرتني بأنها تحبُ الذهاب إلى السينما، وفي شهورنا الأولى معًا أردتُ دائمًا أن أذهب معها، لكنَّها لم تسمحْ لي. كنّا نتحدث أحيانًا عن أفلام شاهدها كلانا. كانت تذهب أيا كان الفيلم المعروض، وكانت تشاهد كلَّ شيء، من أفلام الحرب الألمانية والأفلام الشعبية إلى أفلام الغرب الأمريكي، والأفلام الجديدة، وكنتُ أحب كلَّ ما

يأتي من هوليود، سواء كانت أحداثه تدور في روما القديمة، أو في الغرب القاحل، وكان هناك فيلم من أفلام الغرب الأمريكي كنا نحبه تحديدًا، وهو الفيلم، الذي يلعب فيه ريتشارد ويدمارك دور الشريف، الذي عليه دخول مبارزة في صباح اليوم التالي، وعقد العزم على أن يخسرها، وفي المساء يدقُ باب دورثي مالوني، التي تحاول، لكنَّها تفشل، أن تثنيهِ عن خوضها، فتفتح له "ما الذي تريده الآن، أتريد حياتكَ كلها في ليلةٍ واحدة؟".. أحيانًا كانت هانا تمازحني عندما آتيها مفعمًا بالرغبة، بقولها: "ما الذي تريده الآن؟ أتريد حياتكَ كلها في ليلةٍ واحدة؟"

المرةُ الوحيدة فقط، التي رأيتُ فيها هانا بالصدفة. كانت في نهاية شهر يوليو، أو بداية شهر أغسطس، في الأيام القليلة الأخيرة، قبل العطلة الصيفية.

لأيامٍ كانت هانا تتصرف بشكلٍ غريب، مزاجية وحادة، وفي ذات الوقت بدا بوضوحٍ أنها كانت تحت وطأة ضغطٍ كان يعذبها تمامًا، ويتركها في غاية الحساسية، وسريعة التأثر. استجمعتْ نفسها ورباط جأشها، وكأنها تمنع نفسها من الانفجار، عندما سألتها عمّا يضايقها بهذا الشكل، عنّفتني بوقاحة، وكان ذلك أمرا يصعب عليَّ تحمله. شعرتُ كالمنبوذ، لكنني أيضًا شعرتُ بقلة حيلتها، وحاولتُ أن أكون بجوارها، وأن أتركها في الوقت نفسه في سلام، وذات يوم تلاشى الضغط. في بادئ الأمرِ اعتقدتُ بأنَّ هانا عادت إلى حالتها الطبيعية مرةً أخرى، ولم نكنْ بدأنا كتابًا جديدًا بعد نهاية "الحرب والسلام"،

لكنني كنتُ وعدتُها بأنني سأتولى الأمر، وأحضرتُ عدة كتبٍ لتختار من بينها.

لكنَّها لم ترغب في ذلك، "دعني أحممُك يا ولد".

لم تكن رطوبة الصيف هي، التي حطّت عليَّ مثل شبكة ثقيلة عندما دخلتُ إلى المطبخ، فأدارتْ هانا غلاية الماء من أجل الاستحمام، وملأتْ حوض الاستحمام، ووضعتْ فيه بضع قطرات من زيت اللافندر، وحممتني. ثوبها ذو اللون الأزرق الفاتح المرصع بالورود، الذي لم ترتد تحته ملابس داخلية، التصق بفعل الهواءِ الساخن المعبأ بالبخار بجسدها المتعرق، فأثارتني بشدة، وعندما مارسنا الحب، شعرتُ بأنها تريد أن تدفعني إلى شعور يتجاوز أيَّ شيء شعرتُ به من قبل، إلى نقطة لم يكن بوسعي تحملها. منحتني نفسها على نحو لم تفعله من قبل، وبلا تحفظ، دون أن تتخلى عن حدود اللياقة، فهي لم تفعل ذلكَ قط، لكنَّ الأمر كان كما لو أنها أرادتْ أن نغرق معًا.

"الآن اذهب إلى أصدقائك".

صرفتني، فذهبت. وقف الحرُّ بين المباني راسخًا، واستلقى على الحقول والحدائق، وتلألأ فوق الأسفلت. كنتُ مخدرًا، وفي حمام السباحة وصلتني صرخات الأطفال، الذين يلعبون، ويرشّون الماء على بعضهم، كما لو أنها من مسافة بعيدة. تحركتُ في العالم، كما لو أنَّه لا ينتمي إليّ ولا أنتمي إليه. غطستُ في الماءِ اللبني المعالج بالكلور،

وشعرتُ برغبة في عدم الصعود إلى سطح الماءِ ثانيةً. استلقيتُ بجوار الآخرين، مستمعًا لهم، ووجدتُ ما يقولونهُ سخيفًا وبلا معنى.

وأخيرًا غادرني هذا الشعور، وفي النهاية استحال اليوم إلى يوم عادي في حمام السباحة مع آداءِ الواجبات الدراسية، ولعب الكرة الطائرة، والتحدُّث عن الآخرين والمغازلات. لا أذكر ما الذي كنتُ أفعله عندما نظرتُ فرأيتُها.

كانتْ تقف على مبعدة عشرين أو ثلاثين مترًا، وهى ترتدي شورت وبلوزةً مفتوحةً، ومعقودة من الوسط، وتنظر إليّ. نظرتُ إليها. كانت بعيدةً تمامًا، فلم أتمكن من قراءة تعبيرات وجهها. لم أهبُّ واقفًا على قدميَّ، ولم أجر إليها. تسابقت في رأسي الأسئلة: لماذا كانت في حمام السباحة، هل كانت تريد أن يراها الناس معي، وهل كنتُ أريد أن يراها الناس معي، لماذا لم نلتقِ صدفةً من قبل، ما الذي يجبُ عليَّ فعله؟ وعندئذٍ نهضتُ. في تلك اللحظات الوجيزة، التي أبعدتُ عيني عنها كانت رحلتْ.

هانا ترتدي شورت، وطرفا بلوزتها معقودين، ووجهها قبالتي، لكن مع تعابير لا أتمكن من قراءتها على الإطلاق، تلك كانت واحدة من صورها، التي أحتفظ بها.

17

في اليوم التالي كانت رحلتْ. أتيتُ في الموعد المعتاد، وقرعتُ الجرس. نظرتُ من خلف الباب، كلُّ شيءٍ بدا معتادًا، كما كان دائمًا، وكان بوسعي سماع تكات الساعة.

جلستُ على السلم مرةً أخرى. على مدار الأشهر القليلة الأولى، كنتُ أعرف دائمًا رقم الخط، الذي تعمل عليه، على الرغم من أنني لم أُعِدْ محاولتي لاصطحابها، أو حتى التقاطها من مكان عملها، بعد ذلك، وعند حد ما كنت توقفتُ عن السؤال، ولم أعد مهتمًا بذلك، والآن فقط صدمني الأمر.

استخدمتُ كابينة هاتف في ولهمسبلتز للاتصالِ بشركة الترام، وتم تحويلي من شخصٍ إلى آخر، وفي النهايةِ تمّ إخباري بأن هانا شميتز لم تأتِ للعمل. رجعتُ إلى شارع المحطة، وسألتُ في محل النجار الموجود في الباحةِ عن اسم صاحب البناية، وحصلتُ على الاسم والعنوان في منطقة كرهايم، وذهبتُ إلى هناك.

"السيدة شميتز؟ لقد غادرت مسكنها هذا الصباح".

"وأثاثُ منزلها؟"

"إنه ليس أثاثُها".

"منذ متى، وهى تسكنُ في الشقة؟"

"وما شأنُكَ أنت؟".. المرأةُ، التي كانت تتحدث إليَّ من خلال نافذة الباب صفعتها في وجهي.

في المبنى الإداري بمحطةِ الترام، تحدّثتُ إلى مسئول القسم. كان رجلًا ودودًا ومهتمًا.

"اتصلَت هذا الصباح مبكرًا بنا لكي نرتب من ينوب عنها، وقالت إنها لن تأتي."، وهزّ رأسه "منذ أسبوعين كانت تجلس هنا في مكانكَ هذا، وعرضتُ عليها أن يتم تدريبها كسائق، إلا أنها لم تعبأ بالأمر".

استغرقني الأمر بضعة أيام لأهتدي لفكرة الذهاب إلى مكتب السجل المدني. أخبرتهم بأنها ستنتقل إلى هامبرج، لكن دون أن تحدد عنوانًا.

مرّت الأيام، وأخذتُ أشعرُ بالمرض. تعذّبتُ كثيرًا كي أتأكد أنَّ أحدًا من أبويّ وإخوتي لا يلحظ شيئًا، وعلى طاولة العشاء تحدثتُ قليلًا، وأكلتُ قليلًا، وعندما كنتُ أشعر بالتقيؤ، كنتُ أدبرُ أمري بأن أفعلَ ذلك في الحمام. ذهبتُ إلى المدرسة، وإلى حمامِ السباحة. قضيتُ أوقات الظهيرة في مكان بعيد عن الأنظار، حيث لا أحد ينظر إليّ. جسدي مشتاقٌ لهانا، لكن الأسوأ من رغبتي الجسدية هو شعوري بالذنب. لماذا لم أهبَّ واقفًا في الحال عندما رأيتُها هناك، وعدوتُ إليها! هذا الموقف الصغير اختصر لامبالاتي في الشهورِ الماضية، التي جعلتني أتنكر لها وأخونها، وكان عقابها تركها إياي.

أحيانًا أحاول إقناع نفسي بأنها لم تكنْ هي التي رأيتُها. كيف كان بوسعيَّ أن أتحقق من أنها هي، وأنا غير قادرٍ على تبيُّن تعبيرات الوجه؟ لو أنها كانت هي، كنتُ سأميزُ وجهها؟ لذا تعذر عليَّ إطلاقًا التأكد من أنها لم تكن هي؟

لكنني كنتُ أعرف بأنها كانت هي. وقفتْ وتطلّعتْ، لكنَ الوقت كان فات.



الجزء الثاني

1

بعد أن غادرت هانا المدينة، استغرق الأمر فترةً من الزمن كي أتوقف عن البحث عنها في كل مكان، كي أعتاد على حقيقة أن أوقات الظهيرة فقدتْ شكلها، وكي أتمكن من فتح الكتب والنظر فيها دون أن أسأل نفسي إذا ما كانت مناسبة للقراءة بصوت عالٍ. استغرق الأمر فترة كي يتوقف جسدي عن الاشتياق لها، كنتُ أنتبه أحيانًا لنفسي، ولذراعيّ وقدميّ، وهما يفتشان عنها في أثناءِ نومي، وأكثر من مرة أخبر أخي الجميع على طاولة الطعام بأنني كنتُ أنادي بصوت عالٍ في أثناءِ الليل "هانا". أذكر أيضًا حصص المدرسة، التي لم أكن أفعل شيئًا فيها سوى الحلم والتفكير بها. إحساسي بالذنبِ، الذي كان يعذبني في الأسابيع الأولى انطفأ تدريجيًا. تحاشيتُ منزلها، وسلكتُ طرقًا أخرى، وبعد ستة أشهرٍ انتقلت عائلتي إلى مكانٍ آخر بالمدينة. لا يعني هذا أنني نسيتُ هانا، لكن عند نقطةٍ ما توقفتْ ذكرياتي معها عن مصاحبتي. ظلت في الوراء، كما تتخلف مدينة عن ذيل قطار يمضي قدمًا. إنها هناك، في مكان ما خلفك، بإمكانك أن تعود إليها هناك لتتأكدَّ من وجودها، لكن لماذا يجب فعل ذلك؟

أذكرُ أنني أمضيتُ سنواتي الأخيرة في المدرسة، وسنواتي الأولى في الجامعة سعيدًا، مع أنني لا أستطيع أن أقول عنها الكثير. كانت سنينًا لا عناء فيها، فلم ألق صعوبةً في الامتحانات النهائية في المدرسة أو الدراسات القانونية، التي اخترتها لأنني لم يكن بوسعي التفكير في أي

شيء آخر كنت أريد فعله بالفعل، ولم يكن لدي صعوبة في اكتسابِ الأصدقاء، أو إقامة علاقات أو إنهائها، لا شيء كان يصعب عليّ. كلُّ شيءٍ كان سهلًا، ولا شيء له ثقل عليّ، ربما لهذا السبب صُرّةُ ذكرياتي صغيرةٌ جدًا، أم أنني منْ يحافظ عليها بهذا الصغر؟ بل إنني أتساءل: أذكرياتي السعيدة حقيقية فعلًا؟ لو أنني أمعنت التفكير فيها، فسيأتي إلى رأسي كثير من المواقف المحرجة والمؤلمة، وأعرف بأنني حتى وإن قلتُ وداعًا لذكرياتي مع هانا، فأنا لن أتغلّب عليها، بعد هانا لم أُهن، ولم أهن نفسي أبدًا، ولم أُحمِّل نفسي أبدًا ذنبًا، ولم أشعر بالذنب، ولم أقع ثانيةً في حبِّ أحدٍ سيؤلمني فقده أبدًا، ولم أضع أيًا من هذا في تفكيري ساعتها، لكنني أعرفُ بأن ذلك ما كنتُ أشعر به.

تقمَّصتُ ملامح التعالي، وتصرفتُ كما لو أنّ لا شيءَ بإمكانه ملامستي أو هزي أو جعلي مضطربًا، ولم أنخرط في أي شيء، أذكرُ أن مدرسًا لاحظ ذلك، وتحدَّث معي في الأمر، فتعاملت معه بصلفٍ، وأذكر أيضًا صوفي، فبعد رحيل هانا عن المدينة بوقت ليس طويلا أصيبت صوفي بداء السُّل، وقضت ثلاث سنواتٍ في مصحة، وعادتْ عند دخولي للجامعة. كانت تشعر بالوحدة، وتسعى للتواصُلِ مع أصدقائها القدامى، ولم يصعُب عليَّ دفع نفسي إلى داخل قلبها، وبعد أن نمنا معا، أدركتْ أنني لم أكن مهتمًا بها، فسألتني والدموع في عينيها: "ما الذي جرى لك، ما الذي جرى لك؟"، وأذكر جدّي في واحدة من زياراتي الأخيرة لهُ قبل موته، أنَّه أراد أن يباركني، فأخبرته بأنني لا أؤمن في ذلك، ولا أُقيم له وزنًا. يصعبُ عليَّ تخيُّل أنني كنتُ أشعر بتحسن بعد تصرّفي بهذه الطريقة، وأذكرُ أيضًا أنَّ أقل بادرة

حنان كانتْ تجلب في حلقي غصةٍ، سواء كانت موجهة لي أو لغيري، وأحيانًا مجرد مشهد في فيلم كان يكفي. هذا التباين بين القسوة والحساسية العالية بدا غريبًا حتى بالنسبة لي.

2

حينَ رأيتُ هانا مرةً أخرى كان ذلك في قاعةِ المحكمة.

لم تكن تلك أولى محاكمات قضية معسكرات الاعتقال، ولم تكن واحدة من المحاكمات الكبرى، فأستاذُنا، وهو أحدُ القلائل، الذين عملوا في ذلك الوقت على ماضي الحكم النازي والمحاكمات المترتبة عليه، جعل من المحاكمة كلها موضوعًا لسيمينار، لعله يمكنه متابعتها بمعاونة الطلبة، ثم تقييمها. لا أذكر ما الذي كانَ يريدُ تحديدًا بحثه، والتأكيد عليه، أو معارضته، لكنني أذكر جيدًا أننا كنا ناقشنا في السيمينار منع تطبيق العدالة بأثر رجعي، وهل يكفي أن الفقرة، التي أُدين بموجبها حرس معسكرات الاعتقال والمأمورون، كانت موجودة فعلًا في قانون العقوبات وقت ارتكابهم جرائمهم، أم أن السؤال هو كيف كانت القوانين تُفسر، وتُطبق في الوقت، الذي ارتكبوا فيه جرائمهم، وأنها لم تُطبق عليهم؟ ما هو القانون؟ هل ما يوجد في الكتب، أم ما يُطبق بالفعل، ويتبعه المجتمع؟ أم أنَّ القانون هو ما يجب تطبيقه واتباعه، سواء كان في الكتب أو لم يكن، وإن كانت الأمور تسير على ما يرام أم لا؟ الأستاذ -وهو رجلٌ عجوز محترم، كان قد عاد من المنفى، لكنه ظل دخيلًا بين أساتذة قسم القانون الألماني- شارك في هذه المناقشات بكلِّ قواه العلمية، بل وفي الوقت نفسه بانعزالٍ ما عاد يُعتمد عليه في الدراسة لتقديم حل لمشكلة،

"انظروا إلى المدّعى عليهم، لن تجدوا واحدا منهم يصدِّق فعلًا أنَّه كان لديه إباحة بالقتل وقتها".

بدأ السيمينار في الشتاء، والمحاكمة في الربيع، واستمرت لعدة أسابيع، وكانت الجلسات تعقدُ من الاثنين حتى الخميس، ولكل يوم من الأيام الأربعة كان الأستاذ عيَّن مجموعة من الطلبة لتسجيل الجلسة كلمةً كلمة، ويوم الجمعة كانت تُعقد جلسة السيمينار للنظر فيما تمَّ تجميعُه الأسبوع الماضي.

تفحيص! واستكشاف للماضي! اعتبرنا أنفسنا نحن طلبة السيمينار المستكشفين الثوريين. فتحنا النوافذ عنوة، وتركنا الهواء يدخل، والريح، التي عصفتْ أخيرًا بالتراب، الذي تركه المجتمع يتراكم على أهوال الماضي. تأكدنا أن بوسع الجميع التنفس والنظر، ولم نعتمد على الدراسة القانونية، فلقد كان واضحًا لنا أنه لا بد من إدانة، وكان من الواضح أيضًا أن إدانةِ حارسِ المعسكرِ هذا أو ذاك أو المأمورِ بتنفيذِ الأمر كانت مجرد افتتاحية. كان الجيل، الذي خدمه الحرس والمأمورون، ولم يمنعهم أو يعارضهم، على الأقل فيما حدث بعد عام 1945، في المقدمة، فلقد تفحصناه، وأدنّاه وجعلناهُ قيد المحاكمة المستمرة، ووصمناهُ بالعار.

أباؤنا لعبوا أدوارًا مختلفة، ومتعددة في حزبِ الرايخِ الثالث. العديد من أبائنا كانوا في الحرب، اثنان أو ثلاثة منهم كانوا ضباطًا بالقوات الدفاع "فيرماخت"، وضابط بوحدة فافن اس اس. بعضهم احتل مناصب في دوائر قضائية وحكومية، وكان من بين أبائنا أيضًا

مدّرسون وأطباء، أحدُنا كان عمُّه مسئولًا كبيرًا في وزارةِ الداخلية. أنا متأكدٌ أنه للحد، الذي سألنا عنده، وللحد الذي أجابونا عنه، صارت لديهم قصص مختلفة جدًا ليحكوها. أبي لم يكن يريد التحدث عن نفسه، لكنني عرفتُ أنَّه خسر وظيفته كمحاضرٍ للفلسفة لأنه وضع في جدول محاضراته محاضرةً عن سبينوزا، ثم عمل لإعالتنا كمحررٍ بدار لنشر خرائط للرحلات والكتب. كيف تسنى ليّ وصمه بالعار؟ لكنني فعلت. كلُّنا وصمنا آباءنا بالعار، حتى وإن كانت التهمة الوحيدة أنَّهم بعد عام 1945 تسامحوا بداخلهم مع الجلادين.

طورنا نحنُ طلبةُ السيمينار هويةً جماعيةً قوية. كنا طلبة معسكرات الاعتقال، هكذا كان يصنفنا الطلبة الآخرون، ثم سرعان ما أطلقنا ذلك على أنفسنا. ما كنّا نفعلهُ لم يعبأ به الآخرون، بل عزل الكثير منهم، وطرد حرفيًا البعض الآخر. عندما أفكر في الأمر الآن أعتقد بأنَّ حماستنا الشديدة في إدانة أهوال الماضي ورغبتنا في توعية كل فرد بهذهِ الأهوال كان في الحقيقةِ أمرٌ كريه. وكلما كانت الأحداث التي قرأنا عنها، وسمعنا بها أكثر فظاعة، كلما صرنا أكثر تأكدًا بمسؤوليتنا في التوعية وتوجيهِ الاتهام، حتى إذا كانت الحقائقُ تحبسُ أنفاسنا، كنا نتمسك بها في انتصار، هاتفين "انظر لهذا!"

التحقتُ بالسيمينار لمجردِ الفضول، فلقد كان الأمرُ مختلفًا، فلا عقود ولا أملاك ولا قوانين أحوال شخصية وجنائية. أتيتُ إلى السيمينار محمّلًا بريحِ الخيلاءِ والغرور، لكن مع انقضاء الشتاء،

وجدت أنني يصعب عليَّ الانسحاب أكثر فأكثر، وذلك إمَّا بسبب الأحداث، التي قرأناها أو سمعنا بها، أو الحماسة، التي تملكت طلبة السيمينار. في البداية، تظاهرتُ أمام نفسي بأنني كنتُ أريد فقط المشاركة من أجل المناظرة البحثية، أو من أجل نزعتها السياسية والأخلاقية. غير أنني رغبت في المزيد، أردتُ أن أشارك في حالة الشغف العامة، ربما وجدني الآخرون بعيدًا عنهم ومغرورًا، أما بالنسبة إليّ فكنتُ مرتاحًا طيلةَ ذلك الشتاء أنني أنتمي لشيء ما وأنني في سلام مع نفسي حيال ما أفعله، ومع الناس الذين كنتُ أشاركهم ذلك.

3

المحاكمة كانت في بلدة أخرى، حوالي ساعة بالسيارة. لم يكن لدي سبب آخر للذهاب إلى هناك. قادنا بالسيارة طالبٌ آخر. نشأ هناك ويعرفُ المكان جيدًا.

كان اليومُ هو الثلاثاء، والمحاكمة بدأت يومُ الاثنين. مضت الأيام الثلاثة الأولى من الإجراءات في الاستماع لمرافعاتُ الدفاع لنفي الادعاء. مجموعتنا كانت المجموعة الرابعة، التي ستشهد استجواب المدّعى عليهم تمهيدًا لبداية إجراءات المحاكمة. قدنا السيارة عبر شارع برغ، تحتَ أشجار الفاكهةِ اليانعة. كنا طافحينَ بالبهجة، فأخيرًا بوسعنا أن نضع ما تعلمناه قيدَ التنفيذ. لم نشعر بأننا مجرد مفتشين، ومستمعين أو مسجلين، فالمشاهدة والاستماع والتسجيل كانت تلك هي مساهماتُنا لاستكشاف التاريخ. المحكمة كانت في مبنى مشيد على طراز مطلع القرنِ العشرين، لكنَّهُ خالٍ من الأبهةِ الكئيبة، التي كانت تميِّز مباني المحاكم في ذلك الوقت. الغرفةُ التي حلَّت بها هيئةُ المحكمة كان بها صفٌّ من النوافذ الكبيرة على الجانب الأيسر، ذات زجاجٍ لبني حالَ دونَ رؤيةِ المنظر الخارجي، لكن سمح بمرورِ قدرٍ كبيرٍ من الضوء. وكلاءِ النيابة جلسوا عند مقدمةِ الصفِ الأولِ من النوافذ، قبالة ضوء النهار الصيفيِّ المشرق فكانوا مجرد صور ظلٍ معتمة. هيئةُ المحكمة، ثلاثة قضاةٍ يرتدون أروابًا سوداء، وستة مواطنين منتخبين، كان مكانُها في صدرِ غرفةِ المحكمة، وعلى اليمين كانَت مقاعد

المدَّعى عليهم ومحاميهم. كان هناك الكثير منهم لدرجةِ أنَّ المقاعدَ الإضافيةِ والطاولات امتدت إلى منتصف الغرفة أمام مقاعد الجمهور. بعضٌ من المدَّعى عليهم ومحاميهم كانوا جالسينَ وظهورِهم لنا. من بينهم كانتْ هانا. لم أتعرّف عليها حتى نودي عليها، ونهضت وتقدمت خطوةً للأمام. بالطبعِ تعرَّفتُ على الاسم فور سماعه، هانا شميتز، وثم بعدها ميَّزتُ الجسد، والرأس بشعرهِ المعقوص بطريقةٍ جديدة عليها، العنق، الظهر العريض، الذراعينِ القويتين. شدَّت جزعها في ثبات مرتكزةً على قدميها، وذراعاها مرتخيانِ إلي جنبيها. كانت ترتدي ثوبًا رماديًا بأكمامٍ قصيرة تعرّفتُ عليها، لكنني لم أشعرُ بشيءٍ. لا شيءَ على الإطلاق. نعم، وقفت. نعم، إنها مولودة في 21 أكتوبر1922، على مقربةٍ من سيبيو، وأنَّ عمرها الآن ثلاثةٍ وأربعين سنة. نعم، عملت في شركة سيمنز في برلين، والتحقت بفافن اس اس في خريف 1943.

"التحقتِ متطوعة؟"

"نعم."

"لماذا؟"

لم تجبْ هانا.

"هل صحيح أنكِ التحقتِ بفافن اس اس، على الرغمِ من أن سيمنز عرضت عليكِ وظيفةِ ملاحظَة عمال؟"

هبَّ محامي هانا واقفًا على قدميه، "ما الذي تعنيه بقولك على الرغم من؟ هل تقصد أن تقول أنَّ امرأة يجب عليها أن تُفضل أن تصبح ملاحظة عمال في سيمنز على أن تلتحق بفافن اس اس؟ لا توجد مبررات لجعل موكلتي تجيب على هذا السؤال".

ثم جلس، كانَ أصغر عضوٍ في محامي الدفاع، الآخرون كانوا أكبر منه عمرًا، بعضٌ منهم، كما بدا واضحًا، نازيون قدامى، وتحاشى محامي هانا رطانتهم ومنطقهم، لكنَّهُ كانَ متعجلًا جدًا، ومتحمسًا بشكلٍ زائد على نحوٍ أضرَّ بموكلته. تمامًا، كما أضرّت خطب زملائه النازيين المسهبة بموكليهم. نجح بالفعل في جعل القاضي يبدو منزعجًا، وأن يكف عن إلحاحه في السؤال عن السبب في التحاق هانا بفافن اس اس، لكنَّ الانطباع ظلَّ أنها فعلت ذلك بإرادتها، وليس تحت ضغط، ولم يساعد ذلك حين سألها أحد أعضاء هيئة القضاة عن نوع العمل، الذي كانتْ تتوقع عمله في فافن اس اس، فقالت إنَّ فافن اس اس كان يجند النساء العاملات في مصانع سيمنز، ومصانع أخرى من أجل مهام الحراسة، وتقدَّمت بطلب، وتم قبوله.

ووفق أسئلة القاضي، شهدت هانا بكلماتٍ قصيرة بأن نعم خدمت في معسكرات أوشميتز حتى أوائل عام 1944، ثم بعد ذلك في معسكرٍ صغيرٍ بالقرب من كراكو حتى شتاء 1944 و45، وأن نعم عندما نُقل السجناء إلى الغرب كانت معهم طيلةَ الطريق، وأنها كانت في كاسل حتى نهايةِ الحرب، ومنذ ذلك الحين عاشت من

مكانٍ إلى مكان. أقامت في مدينتي لمدةٍ ثماني سنوات، وتلك كانت أطول فترة قضتها في أيِّ مكان.

:"هل تغيير مكانِ إقامتها بشكلٍ متكرر من المفترض أنهُ يعطي الحجة في اعتبارها خطرا متنقلًا؟".. كان المحامي ساخرًا بشكل واضح: "موكلتي سجلت نفسها في سجلات الشرطة في كلِّ وقتٍ كانت تنتقل فيه إلى عنوانٍ جديد، وفي كلِّ مرة كانت تغادر فيها المكان. لا يوجد سبب لافتراض أنها كانت تهرب، فلا شيءٌ لديها لتخفيه. هل تشعر هيئة المحكمة أنَّهُ من المستحيل إطلاق سراح موكلتي بكفالة بسبب خطورةِ التهم، ومخاطر إثارةِ الرأي العام؟ إنَّ هذا، يا سادة، لهي حجة نازية لحبس أيِّ شخص، وإنه إجراء أقدم عليه النازيون وألغي بعدهم، وما عاد له وجود". بتأكيدُه الخبيث أوضح المحامي السخرية في هذه الحقيقة.

كنتُ متذبذبًا. فأدركتُ أنني افترضتُ أنهُ من الطبيعي والمناسب أن تكون هانا في الحبس. ليس بسبب التهم، أو خطورةِ الادعاء، أو قوة الدليل، الذي لم أعترف به بعد، لكن لأنها في زنزانة السجنِ ستكونُ بعيدةً عن عالمي، بعيدةً عن حياتي. أرادتُ أن تكونَ بعيدةً عني، لا يمكنُ الوصول إليها كي تظل مجرد ذكرى كما صارت وبقيت طيلة هذه السنوات. لو أن المحاميَّ حالفهُ النجاح، سيكونُ عليَّ أن أحضّر نفسي للقائها مرةً أخرى، وأن أتدرب على كيف أريد فعل ذلك، وكيف ينبغي أن يكون. لم أجدَّ سببًا لفشله، فلو أن هانا لم تحاول أن تهرب من القانون منذ ذلك الحين، فلماذا ستحاول الآن؟

وأيُّ دليلٍ يمكنها أن تكتمه؟ فلم تكن هنالك أسبابٍ قانونيةٍ أخرى، في ذلك الوقت، لحبسِ أيِّ شخص.

بدا القاضي منزعجًا مرةً أخرى، وبدأتُ أشعر بأن تلك كانت حيلته الخاصة، إذا ما وجد الجملة مبالغٌ فيها أو مزعجة، خلع نظارته، وحدِّق في المتحدث بنظرة قصيرة خاوية، ثم عبس، سواء تجاهل الجملة كلَّها أو بدأ بقول: "إذن أنتَ تقصد"، أو "إذن أنت تحاولُ أن تقول"، ثم أعاد ما قيل بطريقة لا تدع مجالًا للشك في أنه ليس لديه رغبة في أن يتعامل مع الأمر، وأنَّ محاولة إرغامه على فعل ذلك ستكون بلا طائل.

"إذن أنتَ تقول أنَّ قاضي الاعتقال أساء تفسير حقيقة أن المدَّعي عليها تجاهلت كل الخطابات والاستدعاءات، وأنها لم تقدم نفسها للشرطة أو وكيل النيابة، أو القاضي؟ هل ترغب في تقديم مذكرةٍ لرفع أمر الحبس؟"

قدم المحامي المذكرة، ورفضتها المحكمة.

4

لم أفوّت يومًا واحدًا في المحاكمة. كان الطلبة الآخرون مندهشين، وكان الاستاذُ سعيدًا بأن واحدًا منا كان يتأكد من أن المجموعة التالية علمت بما رأته المجموعة السابقة، وسمعت به.

لمرةٍ واحدة فقط تطلَّعت هانا إلى المفتشين وإليَّ. عادة ما كان الحارس يُحضرها، فتجلسُ في مكانها، وتثبتُ عينيها على المنصَّة، التي تقام عليها اجراءاتِ اليوم. بدت عليها الغطرسة، تمامًا كحقيقة عدم حديثها مع الآخرين من المدَّعى عليهم، كما أنها بالكاد لم تتحدث مع محاميها مطلقًا، لكن، مع استمرار المحاكمة، أخذ المدعى عليهم يتحدثون أقل فيما بينهم أيضًا، وعند الاستراحةِ من الإجراءات كانوا يقفون مع أقاربهم وأصدقائهم، وفي الصباح كانوا يلوحون ويهتفون مرحبين بهم عندما يشاهدونهم في مقاعد الحاضرين. في فترات الاستراحة كانت هانا تظلُّ في مقعدها.

لذا كنتُ أراها من ظهرها. رأيتُ رأسها، وعنقها، وكتفيها، ورحتُ أفكُ شفرات رأسها، وعنقها وكتفيها. عند مناقشتها ينتصبُ رأسها بشدة. عندما تشعرُ بأنها عوملت بظلم، أو شُنِّعَ بها، أو هوجمت، أو عندما تعافرُ من أجل الرد، كانت تكوّر كتفيها للأمامِ، فينتفخُ عنقها كاشفًا عن حركةِ عضلاتها. رُفضت الاعتراضاتُ بشكلٍ متكرر، وبشكلٍ متكررٍ كان كتفاها يسقطان. لم تهز كتفيها في لامبالاة أبدًا، ولم تهز رأسها أبدًا. كانت متشنجة جدًا لدرجةٍ لم

تسمح لها بعمل فعل تلقائي، مثلَ هز الكتفين أو هز الرأس، ولا سمحتْ لنفسها بتثبيت رأسها في زاويةٍ، أو تركها لتسقط، أو سندتْ بذقنها على يديها. كانت تجلسُ وكأنها مجمدة. لا بدَّ، وأن الجلوس بهذه الطريقة يُوجع.

أحيانًا كانت تنزلقُ شعيراتٍ من عقصةِ شعرها الضيقة، وتبدأ بالتجعد، والانزلاق على مؤخرةِ عنقها، وتتحركُ بنعومةٍ مع كلِّ هَبَّةِ هواء. أحيانًا كانت هانا ترتدي فستانًا ذا طوقٍ مفتوح بدرجةٍ كافية لإظهارِ الوحمة الموجودة أعلى كتفها الأيسر. عندئذٍ كنتُ أتذكر كيفَ كنتُ أنفُخ عن عنقها الشعر، وكيف كنتُ أقبِّلُ تلك الوحمة، وهذا العنق، لكنَّ الذكرى كانت مثل ملفٍ مستعاد. لم أشعر بشيء.

على مدارِ أسابيع المحاكمة، لم أشعر بشيء، مشاعري كانت مخدّرة. أحيانًا كنتُ ألكزها، وأتخيَّل هانا، وهي تفعل ما كانت معتادةً على فعله بشكل واضح قدر إمكاني، ثم وهي تفعل أيضًا ما استدعاه الشعرُ على عنقها والوحمة على كتفها في رأسي. كان الأمرُ مثل يدٍ تقرصُ ذراعًا مخدرًا بسنِ محقن. الذراعُ لا تستطيعُ أن تميِّزُ أنها قرصت بيدٍ، اليدُ تميِّزُ أنها تقرصُ الذراع، وقد لا يستطيع العقل في الأول تمييز كل منهما على حدة، لكن وبعد لحظةٍ يميِّزُ كلا منهما بشكلٍ واضح، وقد تكون اليدُّ، التي قرصت الذراع قاسية جدًا لدرجةٍ تجعل اللحمَ يبيضَ لفترة، ثم يتدفقُ الدم ثانيةً، وتستعيدُ البقعةُ لونها، غير أن ذلك لا يُعيد الإحساس ثانيةً.

من الذي خدَّرني؟ هل فعلتُ ذلكَ بنفسي، لأنه لم يكن بوسعي أن أتدبر أمري دونَ مخدِّر؟ لقد عمل المخدِّر، ليس في غرفة المحكمة فقط، ولم يجعلني فقط أرى هانا، كما لو أنَّ من أحبَّها، ورغبِ فيها كان شخصًا آخر، شخصٌ أعرفهُ جيدًا، لكنه ليس أنا. في كلِّ جزءٍ من حياتي، أيضًا، كنتُ أقف خارجَ نفسي وأراقبها، فرأيتُ نفسي، وأنا أعملُ في الجامعة، ومع والديّ وأخي وأختي وأصدقائي، لكن في داخلي لا أشعرُ بأنني متورط.

بعد وقتٍ ما اعتقدتُ بأنَّهُ بوسعيَّ أن أتبيَّن خدَّرًا مماثلا في أناس آخرين، ليس في المحامين، الذين واصلوا خلال المحاكمة بالمشاكسة البلاغية القانونية نفسها، وبحذلقة لاذعة، أو ضراوة محسوبة ذات صوتٍ عال، وذلك بحسب شخصياتهم ومواقفهم السياسية. أنهكتهم إجراءات المحاكمة على نحو لا يمكن إنكاره، لذا كانوا في المساء متعبين، وأكثرَ حدة، غير أنهم بين عشيةٍ وضحاها يعيدون شحن ونفخ أنفسهم، حتى يعودوا يطنطنوا ويهسهسوا في صباحِ اليوم التالي تمامًا، كما كانوا قبل أربعةٍ وعشرين ساعة، أما وكلاء النيابة، فبذلوا جهدًا كبيرًا لمواصلة، وإظهار المستوى نفسه من الهجوم يومًا بعد يوم، لكنهم لم يفلحوا، في البداية لأن الحقائق والنتائج المعروضةِ أمام المحكمة أفزعتهم كثيرًا، وثانيًا لأن الخدر بدأ يستولي عليهم. التأثير الأكبر كان على القضاة، وعلى أعضاء هيئة المحكمة، فعلى مدار الأسابيع الأولى للمحاكمة استولى عليهم الفزع ـ أحيانًا مع إعادةِ ذكر الأحداث بعيون دامعة، وأحيانًا بأصوات مخنوقة، وأحيانًا في عباراتٍ مشتعلة أو مبتورة مع صدمة ظاهرة أو جهود واضحة للتحكمِ

بالنفس، بعد ذلك عادت وجوههم إلى طبيعتها، فصار بوسعهم الابتسام والهمس لبعضهم البعض، أو حتى إظهار أمارات نفاد الصبر عندما يفقد الشاهد تسلسل أفكاره أثناء الشهادة. عند الذهاب إلى إسرائيل لسؤال شاهد سُئل من قبل، بدأوا في إحضار حقيبة السفر. بقية الطلبة الآخرين ظلّوا مفجوعين على الدوام. كانوا يأتونَ مرةً واحدة إلى المحكمة أسبوعيًا، وفي كلِّ مرةٍ يحدث الشيءِ نفسه. تَدَخُّل الرعبِ في تفاصيل الحياةِ اليومية. أنا من كنتُ في المحكمة كلَّ يوم، كنتُ ألاحظ انفعالاتهم بلا انحياز.

كان الأمرُ يشبه سجينًا في معسكرات الموت يحيا شهرًا بعد شهر إلى أن أصبح معتادًا على الحياة، في حين يدرك بعينٍ موضوعيةٍ الرعب في القادمين الجدد. يدركها بالخدر نفسه، الذي ينتاب القتلة والموتى أنفسهم. كلُّ أعمالِ الناجين الأدبيةِ تتحدَّث عن هذا الخدر، الذي تقلُّ فيه وظائفُ الحياةِ إلى أقل معدلِاتها، ويصبح السلوك أنانيًا تمامًا لا يعنى بالآخرين، ويكون إطلاق الغازِ والحرق من الأمور اليومية المعتادة، وفي بعض مرويات الجناة النادرة، أيضًا، تصبح غرف الغاز والأفران مشهدًا عاديًا، وتقل وظائفِ الجناة الحيوية إلى أقل معدلاتها، وبدا عليهم شللٌ ذهني، وبلادة يبدون معها كمتعاطي المخدراتِ أو المخمورين. بدا لي أنَّ المدَّعى عليهم ما زالوا عالقين، وإلى الأبد، في حالة الخدر هذي، في حالة شعورية تسمَّروا فيها.

وحتى ذلك الحين، عندما يشغل بالي هذا الخدَّرِ العام، وبحقيقة أنهُ لم يستولِ فقط على الجناة، بل علينا جميعًا، قضاة وأعضاءِ هيئة

المحكمة، ووكلاء النيابة، وكُتاب الجلسة، الذين عليهم أن يتعاملوا مع هذه الأحداث الآن، عندما أربط بين الجناة والضحايا والموتى، والأحياء، والناجين، وأبنائهم لا أشعرُ بشعور طيب حيال الأمر، وإلى الآن لا زلتُ أشعرُ بذلك.

هل يمكن لأحدٍ أن يراهم مرتبطين جميعًا بهذا الشكل؟ عندما بدأت في عقدِ هذه المقارنات في النقاشات، كنتُ دائمًا أؤكدُ أنَّ هذا الربط لا يعني أنني أقرِّب الفارق بين أن تكون مجبورًا على الدخول في عالم معسكرات الموت، وأن تدخله طواعية، بين تحمل المعاناة وفرضها على الآخرين، وهذا الفارق هو الأجدر، والأكثر أهميةً، إلا أنني أقابل بصدمةٍ، واستهجانٍ حين أقول هذا ليس ردًا على اعتراضات الآخرين، ولكن قبل حتى أن يجدوا فرصة للاعتراض.

في الوقتِ نفسه سألتُ نفسي، وكنتُ بدأتُ فعلًا في سؤال نفسي وقتها: ما الذي يجبُّ على جيلنا الثاني أن يفعل، ما الذي يجب فعله حيال المعرفة بأهوال إقصاء اليهود؟ علينا ألا نصدِّق أن بوسعنا فهم اللا مفهوم، ومقارنة ما لا تمكن مقارنتُه، وألا نسأل لأن السؤال يجعل تلكَ الأهوال تكون موضعًا للنقاش، وحتى وإذا كانت تلك الأهوال نفسها ليستْ موضعًا للسؤال، وبدلًا من قبولها كشيءٍ واقعٍ أمامنا، فبوسعنا فقط أن نصمتُ حيالهُا باشمئزاز، وفي عار وذنب. هل يجبُ علينا فقط أن نصمُتُ باشمئزاز، وفي عارٍ وذنب؟ بغرض ماذا؟ لا يعني هذا أنني فقدتُ حماستي الشديدة في تفحص وتسليط الضوء على الأشياء، التي كانت موضع السيمينار، لمجرد أن المحاكمة أوشكت على الانتهاء، لكن

تلك القلة القليلة، التي ستُدان وتُعاقب بينما نحن أبناء الجيلِ الثاني كنا صامتين في اشمئزاز، وشعور بالعار والذنب، فهل هذا كلُّ ما نملكه الآن؟

5

في الأسبوع الثاني، تمّت قراءة لائحة الاتهام، واستغرقت يومًا ونصف اليوم لقراءتها، ويومًا ونصف اليوم للصيغة الشرطية. "زُعِم أن المدَّعى عليها الأولى قامت (...) بالإضافة إلى أنه زُعِم أنها (...) بالإضافة إلى (...)، كما زُعِم أنها (...)، وهكذا فإنها تأتي تحت طائلة بنود المادة كذا وكذا، فضلًا عن الزعِم بأنها ارتكبت هذا وذاك (...)، وأنها تصرفت على نحو غير قانوني ومذنب،" وكانت هانا هي المدَّعى عليها الرابعة.

النساءُ الخمس المتهمات كُنّ حارسات في معسكر صغير بجوار كراكو، وهو معسكرٌ تابعٌ لأوشفتيز، ونقلن من أوشفيتز إلى هناك في أوائل عام 1944 ليحللنَّ محل حارسات قُتلن أو أصبن في انفجار بالمصنع، حيث كانت النساء تعمل في المعسكر. أحد بنود لائحة الاتهام احتوت على سلوكهن في أوشفيتز، إلا أن ذلك كان من سفاسف الأمور مقارنةً بالتهم الأخرى. ما عدتُ أذكر ذلك، فهل كان ذلك لأن هانا لم تشارك في الأمر، ولأنه يخص فقط النساء الأخريات؟ هل كان الأمرُ قليل الأهمية مقارنةً بالتهم الأخرى؟ هل لأن الأمر يبدو ببساطة لا يُغتفر أن يكون هناك شخصٌ ما موجودٌ في المحاكمة، وكان في أوشفيتز دون أن تتهمه في سلوكه هناك؟

بالطبع لم تكن السيدات الخمس المدَّعى عليهنَّ مسئولات عن المعسكر، فكان هناك قائدٌ، بالإضافةِ إلى قوات خاصة، وحارسات

أخريات. لم تنجُ أغلبُ القوات والحرس من الانفجار، الذي وضع في ليلة واحدة نهايةً لترحيل السجناء إلى الغرب. بعضهم هرب في الليلةِ نفسها، منهم من اختفى تمامًا مثل القائد، الذي جعل من العثورُ عليه أمرًا صعبًا حالما تفرق صفُ السجناء في أثناء الترحيل الجبري إلى الغرب.

لا أحد، بالفعل، من السجناء نجا في ليلة الانفجار، غير أنَّ اثنتين كتبت لهن النجاة، أمٌ وابنتها، الابنة كتبت كتابًا عن المعسكر، وعن مسيرة السجناء إلى الغرب، ونُشر في أمريكا. الشرطة ووكلاءِ النيابة تتبعوا، ليس فقط السيدات الخمس المدَّعى عليهنَّ، ولكن شهودا آخرين كانوا يسكنون في القرية، التي حدَّث فيها الانفجار، وأنهت مسيرة الموت. أكثر الشهود أهميةً كانت البنت، التي جاءت إلى ألمانيا، والأم، التي ظلَّت في إسرائيل، وللاستماع إلى أقوال الأم توجهت هيئة المحكمة، ووكلاء النيابة، ومحامو الدفاع إلى إسرائيل، وكان هذا هو الجزء الوحيد من المحاكمة، الذي لم أحضره.

أحد التهم الأساسيةِ كانت تتعلق بعملية انتقاء السجناءِ في المعسكر، فشهريًا كان يتم إرسال ستين امرأة جديدة خارج أوشفيتز، والعدد نفسه كان يتم إرساله ثانيةً إلى هناك، منقوص منه عدد اللاواتي متنَّ في الوقت ذاته. كان من الواضح للجميع أن النساء، اللاتي قتلنَّ في أوشفيتز كنَّ ممن لم يعد بإمكانهن أداء عمل مفيد في المصنع، فأُرسلنَّ إلى هناك. كان المصنع ينتج الذخائر، ولم يكن العمل الفعلي صعبًا، إلا أن النساء كان يصعبُ عليهنَّ القيام بالعمل لأنهن

كان عليهنَّ عمل إنشاءاتٍ جاهزة لإصلاح التوالف، التي تسبب بها الانفجار في أول هذا العام.

التهمة الأخرى الرئيسية تتعلق بليلةِ التفجير، التي أنهت كل شيء. القوات والحرس كانوا أغلقوا الأبواب على السجينات، مئاتِ النساء، في كنيسةٍ بقريةٍ هجرها معظمُ قاطنيها. كانت بضعُ قنابلٍ سقطت، من المحتملِ أنها استهدفت السكك الحديدية المجاورة، أو مصنع، أو أنها أطلقت ببساطة لأنها تبقت بعد هجماتٍ على بلدةٍ أكبر. إحدى هذه القنابل ضربت بيت الكاهن، الذي كان يرقد فيه الحرس والقوات. قنبلةٍ أخرى سقطت على أرض الكنيسة، فاحترق البرج أولًا، ثم السطح، ثم انهارت، بعدَ ذلكِ العوارض الخشبية المشتعلة لتسقط في صحن الكنيسة، ثم أمسكت النيران بالمقاعد الخشبية الطويلة. لم تكن الأبواب الكبيرة قابلةً للتزحزح، وكان بوسع المدَّعى عليهن أن يطلقن سراح السجينات، لكنهن لم يفعلنَّ ذلك، وحُبست النساء في الكنيسة، واحترقنَّ حتى الموت.

6

لا يمكن للمحاكمة أن تمضي أسوأ مما كانت عليه بالنسبة لهانا. تركت بالفعل انطباعًا سيئًا عند هيئة المحكمة خلال الاستجوابات الأولى، فبعد أن قُرأت لائحةُ الاتهام، تحدَّثت لتقول إنَّ ثمةَ شيءٍ غير صحيح، فعنَّفها رئيسُ المحكمة بفظاعة، مخبرًا إياها بأنه كان لديها الكثيرُ من الوقتِ قبل المحاكمة لدراسة التُهم، وتسجيل الاعتراضات، أما الآن، فإن المحاكمة أخذت مجراها، وستُظهر الأدلة ما كان صحيحًا وغير صحيح، وعندما عرض رئيس المحكمة، في بدايةِ الإدلاء بالشهادات الفعلية، بأن لا تقرأ النسخة الألمانية لكتابِ الابنة بصوت عال كي لا تُسجل في محضر الجلسة. كان الكتاب في ذلك الوقت يُحضّر للنشر بواسطة ناشر ألماني، وأُتيح المخطوط لجميع المشاركين في المحاكمة، كان على هانا أن تجادل في الأمر بواسطةِ محاميها، تحت نظراتِ القاضي المغتاظة، فهى لم تكن موافقةً على ذلك، كما أنها لم تشأ أيضًا أن تعترف بأنها أقرَّت، في تحقيقٍ مسبق، بأنها كانت تملكُ مفتاح الكنيسة، فهى لم يكن لديها المفتاح، ولا أحد كان يملكُ المفتاح، ولم يكن للكنيسة مفتاحٌ واحد، بل عدة مفاتيح لعدة أبوابٍ مختلفة، وكلها تُركت بالخارج داخل الأقفال، لكنَّ محضر الجلسة، الذي استجوبها فيه القاضي، واعتمدته هى، ووقعت عليه، كان مختلفًا، وحقيقة أنها سألت لماذا كانوا يحاولون تعليق شيء ما على عاتقها لم يُحسّن من الأمر شيئًا. لم تسأل بصوتٍ عالٍ أو متعالٍ، لكن بثبات، بل أعتقد بأنها سألت في حيرةٍ، وقلة حيلةٍ ظاهرتين

ومسموعتين، وحقيقة أنها تحدَّثت عن أن الآخرين يحاولون تعليق الأمرِ عليها لم يكن قصدها أن المحكمة ظالمة، لكنَّ رئيس المحكمة فسّر الأمر على هذا النحو، وردَّ عليها بحدة. هبَّ محامي هانا واقفًا على قدميه وانطلق، في حماسةٍ مفرطة، فسُئلَ إذا ما كان موافقًا على اتهاماتِ موكلتهِ أم لا، ثم جلس ثانيةً.

أرادت هانا أن تفعل الشيء الصحيح، عندما ظنَّت أنها ظُلمت، أنكرت الأمر، وعند ادعاء، أو زَعم شيء كان صحيحًا، كانت تقرُّ به. كانت تنكر بقوةٍ، وتقرُ طواعية، كأنَّ اعترافاتها أعطتها الحق في إنكارها أو كأنَّها، مع إنكارها، حملت على عاتقها مسئولية الاعتراف بما لم يكن في وسعها إنكاره، لكنها لم تلحظ أن إصرارها ضايق رئيس المحكمة، فلم يكن لديها حس بما هو لائق، أو بقواعدِ اللعبة، أو بالنصوصِ القانونية، التي بها تُحمل عباراتها وعباراتِ الآخرين على محملِ الجرم والبراءة، الاتهام والتبرئة. ولإصلاح سوء فهمها للموقف، كان على محاميها أن يمتلك الكثير من الخبرة والثقة بالنفس، أو ببساطة يكون أحسن مما هو عليه، إلا أنَّ هانا كان عليها ألا تصعبُ عليهِ الأمر، فكانت تسحب بشكلٍ واضح ثقتها منه، لكنها لم تختر محاميًا آخرًا تثقُ فيه أكثر، فمحاميها كان محاميًا عامًا عيَّنته لها المحكمة.

أحيانًا كانت هانا تتمكن من تحقيق نجاح خاص بها. أتذكرُ عند استجوابها بشأن انتقاء المسجونات في المعسكر، فأنكرتَ المدَّعى عليهنَّ الأخريات تمامًا أي علاقة لهنَّ بالمسجونات، بينما أقرَّت هانا

على الفور بأنَّها اشتركت، ليس وحدها، ولكن مثل بقية الآخريات، ما جعل القاضي يشعر بأنَّ عليه أن يستفسرَ أكثر عن الأمر.

"ما الذي كان يحدث عند انتقاء المسجونات؟"

وصفت هانا كيف أنَّ الحارساتِ وافقنَّ، فيما بينهنَّ، على تقديمِ العدد نفسه من المسجونات من المناطق الست، التي تقع تحت مسئوليتهِنَّ بالتساوي، عشر مسجونات من كلِّ قطاعٍ، ويكون الإجمالي ستين، لكن الرقم كان يتغيَّر عندما ينخفضُ عدد المرضى في قطاع كل واحدة منهن، ويرتفع في قطاع آخر، وأنَّ كل الحارسات الموكلات بالحراسة قررنَّ معًا من سيُعاد إرساله ثانيةً.

"ألم تُحجم واحدة منكنَّ، كلكنَّ جميعًا نفذتُنَّ معًا؟"

"نعم"

"أوَ لم تعرفن أنكن ترسلن المسجونات إلى حتفهنَّ؟"

"نعم لكنَّ سجينات جدد تأتينَ إلينا، وكان على القديمات أن يتركنَّ مكانهنَّ للسجيناتِ الجديدات".

"إذن لأنكن كنتنّ تريدنَّ أن تفسحنّ المكان، كنتن تقولن هاي أنتِ وأنتِ وأنتِ يجبُ عليكنَّ أن تذهبنَّ لتلقينَ حتفكن؟"، لم تستوعب هانا ما كان يرمي إليهِ رئيسُ المحكمة.

"أ...أعني.. ماذا كنت تفعل لو كنت مكاني؟"، قصدت هانا أن تطرح سؤالًا جادًا. لم تكنْ تعرف ما الذي كان يتوجب عليها فعله،

أو ما يمكنها عمله بطريقةأخرى، لذا أرادت أن تسمع من القاضي، الذي يبدو عليه أنَّه يعرف كل شيء، ما الذي كان سيفعله.

هدأ كل شيء للحظة، فلم تكن العادة في المحاكمات الألمانية أن يسأل المدَّعى عليه القاضي، لكنَّ السؤال سُئل الآن، وكان الكل ينتظر إجابة القاضي. كان عليه أن يجيب، ولم يكن بوسعه تجاهل السؤال أو تنحيته بعيدًا بتوبيخةٍ، أو بسؤال تحقيريٍّ مضاد. كان ذلك واضحًا لكلٍّ واحد، وله أيضًا، وفهمتُ لماذا كان يختار تعبيرات الانزعاج كملمح ثابت على وجهه. كان ذلك قناعًا له، وكان يمكنه من ورائه، أن يأخذ وقتًا قليلًا للعثورِ على الإجابة، لكنَّه لم يكن وقتًا طويلا، فكلما استغرق وقتًا أطول، كلما زادَ التوتر والتوقع، وكان على إجابته أن تكون على نحو أفضل.

"هناك أمورٌ لا يمكن للواحد ببساطة أن ينخرط فيها، يجب على الواحد أنِ ينحي نفسه عنها، حتى وإنِ كان الثمن موته أو بتره".

ربما كان هذا سيصبح جيدًا لو أنَّه قالَ الشيءِ نفسه، في إشارة مباشرةٍ إلى هانا أو نفسه، فحديثهُ عن ما يجب، وما لا يجب على "الواحد" فعله وتبعاتِ ذلك لم يكن ردًّا عادلًا لجديةِ السؤال، الذي طرحته هانا. فقد أرادت أن تعرف ما الذي يجبُ عليها فعله في موقفها تحديدًا، وليس أن هناكَ أشياء يجبُ ألا تُفعل. جاءت إجابةُ القاضي بائسة ومثيرة للشفقة. الكلُّ أحسَّ بذلك، وكان رد فعله مصحوبًا بتنهيداتٍ خيبة الأمل، ونظروا بانبهارٍ إلى هانا، التي على

نحوٍ ما فازت في تلكَ المناظرة، لكنَّها هي نفسها كانت ضاعت وسطَ أفكارها.

"إذن هل كان يجب عليَّ... أم لم يجب... هل كانَ عليَّ ألا أترك شركة سيمنز؟"

لم يكن ذلك السؤالُ موجهًا للقاضي. كانت تتحدَّثُ إلى نفسها بصوتٍ عالٍ، وبحيرة، لأنها لم تكن سألت نفسها هذا السؤال من قبل، ولم تعرف إذا ما كانَ هذا هو السؤال الصحيح، أو ما هي الإجابة.

7

تمامًا كما أزعجت إنكارات هانا الملِّحة القاضي، فإنَّ طواعية اعترافاتها أزعجت المدَّعى عليهنَّ. كان ذلك يدمر دفاعهن ودفاعها هي الأخرى.

ففي الواقعِ كان الدليلِ نفسه في صالح المدَّعى عليهن، والدليل الوحيد في لائحةِ الاتهام كان شهادةُ الأم، التي ظلَّت على قيدِ الحياة، وابنتها، وكتاب ابنتها، وكان يمكن لأيّ دفاع محنك، دون مهاجمة شهادتي الأم وابنتها، إثارة شكوكٍ معقولة عما إذا ما كان هؤلاء المدَّعى عليهنّ هن فعلًا مَنّ قمنَّ بانتقاء السجينات، فشهادة الشهود في هذه النقطة لم تكن دقيقة، ولا يمكن أن تكون، فعلى أي حالٍ، هناك القائد، والرجالُ ذوو الزيِّ الرسمي، والحارساتُ الأخريات، وهيكل كاملِ من الواجباتِ والأوامر، التي كانت وُجهت جزئيًا للسجينات، وبالتالي لم يتثنى لهن استيعابها إلا جزئيًا فقط. الأمرُ نفسه كانَ صحيحًا بالنسبةِ للنقطةِ الثانية. الأمُ وابنتها كان كليهما تُحبس في الكنيسة، وليس في وسعهما أن يدليا بشهادتهما عما كانَ يحدث بالخارج. بالتأكيد ليس بوسع المدَّعى عليهنَّ ادعاء أنهنَّ لم يكنَّ هناك. الشهود الآخرون، الذين كانوا يعيشون بالقرية في ذلك الوقت كانوا تحدثوا إليهن ويتذكروهن، لكنَّ هؤلاء الشهود الآخرين لا بدَّ عليهم أن يتوخوا الحذر لتحاشي تهمةِ أنهم أنفسهم كان بإمكانهم إنقاذ السجينات، ولو أنَّ المدّعى عليهنَّ كنّ هنَّ الوحيدات هناك. ألم

يكن بوسعِ أهل القريةِ أن يتغلبوا على بضعِ نساءٍ، ويفتحوا أبوابِ الكنيسةِ بأنفسهم؟ ثم ألم يكن عليهم أن يجاروا هيئة الدفاع بأنَّ المدّعى عليهنَّ تصرفنَّ تحتَ قوةٍ لا يمكن إغفالها وأنَّ هذه القوة فرضت نفسها عليهن، وعلى الشهود؟ وأنّهن أُجبرن، أو تصرفن بناءً على أوامر القوات، التي لم تكن فرَّت من أماكنها بعد أو أنهم، بحسب افتراض الحرس، غادروا لفترةٍ قصيرة، ربما لإعادة الجرحى إلى المستشفى الميداني، وأنهم سيأتونَ سريعًا؟

عندما أدركَ محامو المدّعى عليهنَّ أن تلكَ الاستراتيجياتِ فشلت بسببِ تطوعِ هانا بالاعتراف، انتهجوا تكتيكا آخرا، وهو أنهم استخدموا اعترافات هانا لإدانتها، وتبرئةِ المدّعى عليهنَّ الأخريات، وقام محامو الدفاع بهذا بموضوعيةٍ محترفة، ودعمهم المدّعى عليهنَّ بتدخلاتٍ مشوبة بالعواطف.

"قلتِ إنكِ كنتِ تعرفين أنهم يرسلون السجيناتِ إلى حتفهنَّ، وكنتِ الوحيدة، التي تعرفين ذلك، أليسَ كذلك؟ فليس بإمكانك أن تعرفي ما الذي كان يعرفه زملاؤك، ربما تستطيعين تخمينَ ذلك، لكن في الأخير لا تستطيعين الحكمَ بذلك، أليس كذلك؟". سأل هانا هذا السؤال أحد محامي المدّعى عليهنَّ.

"لكننا كنا نعرفُ ذلك جميعًا...".

"إنَّ قولكِ (نحنُ)، (نحن كلُّنا) أسهلُ عليك من قول (أنا)، (أنا وحدي) أليس كذلك؟. أليس صحيحا أنكِ وحدكِ فقط كان لديكِ

سجينات مميزات في المعسكر، فتيات صغيرات، أول واحدةٍ لفترة، ثم واحدة أخرى؟"

ترددتْ هانا "لا أعتقدُ بأنني كنتُ الوحيدة من...".

"أيتها الكاذبة الحقيرة! إنهنَّ المفضلاتِ لديكِ. كلُّ ذلك كان يتمُ بمعرفتكِ أنتِ، وليسَ أيّ واحدةٍ أخرى!". أحد المتهماتِ، وهي امرأةٌ بدينة، لا تختلف كثيرًا عن ديك حبشيٍّ بدين، لكنها بلسانٍ ناثرٍ للعاب، كانت تعمل على إثارة المشاعر بشكل واضح.

"أليس من الممكن أنكِ عندما تقولين (كنا نعرف)، أنَّ أغلبَ ما يمكنك عمله الافتراض، وأنَّكِ عندما تقولين (أظنُّ)، أنكِ بالفعلِ تختلقينَ الأشياء؟". هزَّ المحامي رأسهُ، كما لو أنَّه منزعجٌ باعترافها بهذا الأمر. "ثم أليس صحيحًا أيضًا أنّكِ ما إن تضيقينِ ذرعًا بسجيناتك المفضلات، حتى ترسلينهن إلى أوشفيتز مع الحافلة التالية؟"

لم تجب هانا.

"تلك كانت طريقتك الخاصة والشخصية في انتقاء السجينات، أليس كذلك؟ أنت لا تريدين أن تتذكري، أنت تريدين أن تختبئي وراء شيء كان يفعله الجميع، لكن...".

"يا إلهي!". غطّت الابنة، التي كانت تجلسُ في مقعد من مقاعد الحضور بعد سؤالها، وجهها بيديّها "كيفَ نسيت؟"، سألها رئيسُ المحكمة إذا كانت تودُ أن تضيف شيئًا آخرًا إلى شهادتها، ولم يكن

بوسعها أن تنتظر حتى تُستدعى للتقدمِ إلى الأمام، فقد وقفت وتحدَّثت من بين مقاعد مراقبي الجلسة.

"نعم كان لديها سجيناتٍ مفضلات، دائمًا ما تكون شابة صغيرة ضعيفة ولطيفة، وكانت تأخذُهنَّ تحت جناحها، وتتأكد من أنهنَّ لن يعملن، وتفسح لهنَّ المجال وتهتم بهن، وتطعمهنَّ جيدًا، وفي المساء تستدعيهنَّ إليها، ولم يكن مسموحًا للفتياتِ بأن يقلنَّ ما الذي كانت تفعله معهنَّ في المساء، نحنُ ظنّنا أنها كانت...، خاصة أنهنَّ انتهى بهنَّ المطاف إلى ترحيلهنَّ، كما لو أنها استمتعت بهنّ، ثم ملَّتهنَّ، لكن الأمر لم يكن كذلك على الإطلاق، فيومًا ما تحدثت إحداهنَّ أخيرًا، وعرفنا أن الفتيات كنَّ يقرأنَّ لها بصوتٍ عالٍ ليلةٍ بعد ليلةٍ بعد ليلة، ذلك كان أفضل من أنهنَّ...، وأفضل من العمل بأنفسهنَّ حتى الموت في موقع البناء. لا بدَّ، وأنني فكرتُ في أن ذلك أفضل بكثير، ولم يكن بوسعي نسيان ذلك، لكن هل كان ذلك أفضل؟"، ثم جلست.

استدارت هانا حولها، ثم نظرت إليَّ. عثرت عيناها عليَّ على الفور، وأدركتُ أنها كانت تعرف طيلة الوقت بأنني كنتُ هناك. فقط نظرّت إليَّ، ولم يطلب وجهها شيئًا، ولم يتوسل شيئًا، ولم يؤكد لي شيئًا، ولم يعدني بأيِّ شيء. لقد عرض نفسه ببساطة، ورأيتُ كم كانت مأزومة ومتعبة. كانت تحيط بعينيها هالات، وعلى كلِّ خد كان يجري خط من أعلى إلى أسفل لم أرهُ أبدًا من قبل، إلا أنَّه لم يكن عميقًا بعد، لكنهُ خلَّفَ أثرًا عليها مثل الجرح، وعندما احمرَّ

وجهي تحتَ وطأةِ نظرتها، أشاحت بوجهها، وعادت لتنظرَ إلى منصة القضاة.

سأل رئيسُ المحكمة المحامي، الذي كان قاطع هانا لاستجوابها إذا كان لديهِ أسئلةٌ أخرى للمدّعى عليها، وكذلك سألَ محامي هانا. وسألها، على ما أظن. سألها إذا ما كانت اختارت الفتيات الضعيفات، لأنهنَّ لن يتمكنَّ أبدًا من القيام بالعمل في موقع البناء على أي حال، ولأنهنَّ كنَّ سيُرسلنّ على متن الحافلةِ التالية إلى أوشفيتز في كلِّ الأحوال، وأنها أرادت أن تجعل شهرهم الأخير محتملًا. قوليها يا هانا قوليها. قولي إنكِ كنتِ تريدين أن تجعلي شهرهم الأخير محتملًا، وأنَّ ذلك هو السبب في اختيار البنات الضعيفات الرقيقات، وأنَّهُ لم يكن هنالك ثمة سبب آخر، ولا يمكن أن يكون.

لكنَّ المحامي لم يسأل هانا، وهي لم تتحدَّث من تلقاء نفسها.

8

لم تظهر النسخة الألمانية من الكتاب، الذي كتبته الابنة عن الوقت، الذي قضتهُ في المعسكراتِ، إلا بعد المحاكمة. أثناء المحاكمة كان المخطوط متاحًا، لكن للمعنيِّين مباشرة بالأمر. كان عليَّ أن أقرأ الكتاب باللغة الإنجليزية، وهو تمرينٌ مجهدٌ، وغيرُ معتادٌ في ذلك الوقت، وكما هو الحال دائمًا، صنعت اللغة الأجنبية، التي لم أكن متمكنًا منها، وعانيتُ كثيرًا لفهمها، إحساسًا غريبًا بالمسافة والمباشرة. عملتُ كثيرًا على الكتاب من خلال جهدٍ جهيد، إلا أنني لم أتمكن من فهمه على طريقتي. ظلَّ غريبًا كاللغة نفسها المكتوب بها.

بعد ذلك بسنواتٍ أعدتُ قراءته، واكتشفت أن الكتاب هو الذي خلق تلك المسافة. إنه لا يدعو الواحد للتعرف عليه، ولا يجعل أحدًا متعاطفًا، سواء مع الأم أو الابنة، ولا مع هؤلاء الذين شاركوهم مصيرهم في معسكراتٍ مختلفة، وفي النهاية في أوشفيتز والمعسكر، التابع له بالقرب من كراكو. لم يعط أبدًا ملامح واضحةً بما فيه الكفاية لقادة الثكنات، والحارسات، ولا قوات الأمن ذات الزيّ الرسمي، ولا أي ملمحٍ للقارئ لكي يتمكن من محاكمة أفعالهم إيجابًا أو سلبًا. إنه ينضح بذلك الخدر الشديد، الذي حاولت أن أصفه من قبل، لكن حتى في خدرها لم تفقد الابنة القدرة على الملاحظة والتحليل، كما أنها لم تسمح لنفسها بأن تُلوَّث سواء بالشفقة على نفسها، أو بالثقة بنفسها، التي اجتذبتها، كما هو

واضحٌ من حقيقة أنها نجت، وليس فقط من السنوات، التي عاشتها في المعسكرات، ومنحتها شكلًا أدبيًا. إنها تكتب عن نفسها، وعن سنوات بلوغها، السابقة لأوانها، وعند الضرورة، عن سلوكها الخبيث مع الرزانة نفسها، التي تستخدمها لوصفِ كلِّ شيءٍ آخر.

لم يُذكر اسم هانا في الكتاب، لا جملةً ولا تفصيلًا بأي حال. أحيانًا أعتقد بأنني ألحظُها في إحدى الحارسات، التي وُصفت بالصغيرة، الجميلة، عديمة الضمير بأمانة في تنفيذِ واجباتها، إلا أنني لم أكن متأكدًا، عندما أتذكر المدَّعى عليهن الأخريات، فإن هانا وحدها، التي يمكن أن تكون الحارسة الموصوفة، لكن كانت هناك حارساتٌ أخريات. في أحد المعسكرات عرفت الابنة حارسةً تدعى "ماري"، وهى أيضًا صغيرة، وجميلة وذكية، لكنها قاسية، وصعبة المراس. وحارسة المعسكر ذكرتها بتلك الحارسة، فهل الأخريات تنطبق عليهن المقارنة نفسها؟ وهل كانت هانا تعرف ذلك؟ وهل تذكر ذلك؟ وهل ذلك هو السبب، الذي أزعجها عندما قارنتُها بالفرس؟

المعسكر المجاور لكراكو كان المحطة الأخيرة للأم والابنة بعد أوشفيتز. كان خطوةً للأمام، فالعمل كان صعبًا، لكنه أسهل من سابقيه، والطعام كان أفضل، وكذلك أن تنام ستُ سيدات في غرفةٍ أفضل من مائةٍ في ثكنة، كما أنه كان أدفأ، وكان بوسع السيدات، العثور على حطب في الطريق من المصنعِ إلى المعسكر، وإحضاره معهن.، وكذلك كان هناك الخوف من الانتقاء، لكنه لم يكن بنفس السوء كما في أوشفيتز. ستون امرأة يتم إرسالهن ثانيةً كلُّ شهر، ستون

من ما يقرب من ألفٍ ومائتين، مما كان يعني أن كلَّ سجينةٍ لها عمر متوقع حوالي عشرين شهرًا، حتى وإن كانت تملك قوةً بدنيةً معقولة، وكان هناك دائمًا أمل في أنها الأقوى من العادي، فضلًا على أمل أن تنتهي الحرب في أقل من عشرين شهرًا.

بدأ البؤس عندما أُغلق المعسكر، ورُحلت السجينات ناحية الغرب. كان الوقت شتاءً، وكانت تمطر ثلجًا، وكان الملبس، الذي تجمدّت فيه النساء بالمصنع، وكان يفي بالغرض بالكادِ في المعسكر غير ملائم تمامًا، لكنه لم يكن بنفس سوء ما كنَّ يرتدينهُ في أقدامهنَّ، فغالبًا ما كانت تُضع الخِرق، وأوراق الجرائد المحكمة لتظلَّ عليهن عند وقوفهنَّ أو مشيهنَّ، لكنها كانت من المستحيل أن تصمد طويلًا في مساراتِ الثلج والجليد، ولم تكن النساء تمشي فقط، بل إنهنَّ كنَّ مُساقات ومجبرات على العدو. "مسيرةُ موت؟"، تسألُ الابنة في الكتاب، وتجيب "لا إنها هرولةُ للموت، أو عدو للموت". انهار الكثيرات من النساء طيلة الطريق، كما لم تنهض الأخريات أبدًا على أقدامهنَّ ثانيةً بعد قضاء ليالٍ في الإسطبلات أو مستندات على حائط، بعد أسبوعٍ، كان نصف عدد النساء تقريبًا مات.

الكنيسةُ كانت ملاذًا مناسبًا عن الإسطبلات والحوائط، التي كانت فيها النساء من قبل، وعندما مررنَّ على المزارع المهجورة وظللنَّ طيلة الليل، أخذت قوات الأمن من ذوي الزي الرسمي والحارسات أماكن معيشة لأنفسهم. هنا في القرية، التي غادرها بالكادِ كلُّ أهلها، بوسعهم أن يصادروا بيت الكاهن، ويتركوا للسجناء شيئًا أكثر قليلًا

من إسطبلٍ أو حائط، وكذلك فعلوا، وكذلك حصلت السجينات على شيءٍ دافئٍ للأكل في القرية، التي بدا أنها تبشر بنهاية المأساة. ذهبت النساء للنوم، وبعد ذلك بفترةٍ قليلة سقطت القنابل، وطالما أنَّ برج الكنيسة كان هو الشيء الوحيد المشتعل، فإن النيران كان يمكن سماعها في الكنيسة، لكن دون أن ترى، وعندما انهارت قمة البرج وتحطمت على العوارض الخشبية، استغرق وهجُ النار بضع دقائقٍ كي يصبح مرئيًا، وبحلول ذلك الوقت كان اللهب ينتقل سريعًا بالفعل إلى أسفل، وأمسكت النار بالستائر، وأشعلت العوارضُ الخشبيةُ المشتعلة النارَ في المقاعد، وفي المنبر، وسرعان ما انهار السطح كلُّه في صحن الكنيسة، وبدأ الحريق الكبير.

تعتقد الابنة بأن النساء كان بوسعهنَّ إنقاذ أنفسهنَّ لو أنهنَّ انطلقنَّ في الحال معًا لتحطيم أحد الأبواب، لكنهنَّ ما إن أدركنَّ ما يحدث وما سيحدث، وأن أحدًا لن يأتِ لفتح الأبواب، كان الوقت تأخر كثيرًا. كان الظلام دامسًا تمامًا عندما أيقظتهنَّ أصوات القنابل المتساقطة، ولوهلةٍ لم يسمعن شيئًا إلا ضجةٍ مخيفةٍ غريبة في برج الكنيسة، وظلَّلن صامتات تمامًا، كي يسمعنَّ الضجة بشكلٍ أفضل ويتبيَّن ما هي. كان صوت طقطقة وفرقعة النار، وكذلك وهج اللهب المتأرجح بين الحين والآخر من وراء النوافذ، والتحطم الذي حدث أعلى رؤوسهنَّ، وكشف عن انتشار النار من البرج إلى السطح، كلُّ هذا أدركته النساء فقط بمجردِ أن بدأت العوارض الخشبية في الاحتراق. أدركنَّ الموقف، وصرخنَّ في رعب، طلبًا للنجدة، وألقين بأنفسهنَّ على الأبواب وهزَّزنها وضربنَها، وصرخنّ.

وحين تحطم السطح المحترق داخل صحن الكنيسة، بدت الحوائط كالمدخنة. لم يختنق أغلبُ النساء، بل احترقنَّ حتى الموت في ألسنة اللهب. في النهاية، أخرقت النار طريقًا متوهجًا عبر أبواب الكنيسة المصفحة، لكنَّ ذلك كان بعد ساعاتٍ من الحريق.

نجت الأم وابنتها لأن الأم قامت بعمل شيءٍ صحيح، عندما بدأت النساء تصاب بالهلع، لم تحتمل أن تقف وسطهنَّ، ففرت إلى الجاليري، ولم تعبأ بأنها كانت أقرب لألسنةِ اللهب، أرادت فقط أن تكون وحدها، بعيدًا عن النساء الصارخات الملسوعاتِ والمحترقات. الجاليري كان ضيقًا جدًا لدرجة أنَّ العوارض الخشبية المحترقة لامسته بالكاد. الأم والابنة وقفتا ملتصقتين بالحائط بشدة، ورأتا وسمعتا اشتدادِ النيران. في اليوم التالي لم تجرؤان على الخروج من الكنيسة، وفي ظلامِ الليلةِ التالية كانتا خائفتين من عدم إيجادِ الطريق إلى السُّلم، وإلى منفذ الخروج، عندما غادرتا الكنيسة في فجر اليوم التالي، التقتا ببعضٌ من أهل القرية، الذين فغروا أفواههم في صدمةٍ صامتة، لكنَّهم أعطوهما ملابس وطعامًا وتركوهما لترحلان.

9

"لماذا لم تفتحنَّ الأبواب؟".. سأل رئيسُ المحكمة هذا السؤال للمدّعى عليهنَّ واحدةٍ تلو الأخرى، أجابت كل واحدة الإجابة نفسها. أنهنَّ لم يتمكنَّ من فتح الأبواب. لماذا؟ لأنهنَّ انجرحنَّ عندما أصابت القنابل بيت الكاهن، أو لأنهنَّ أصابتهنَّ الصدمة جراء القصف، أو أنهنَّ كنَّ مشغولاتٍ بعد القصف، بالمجروحينَ من أفراد القوات، وجذبهم خارج الأنقاض، وتضميد جراحهم، والاعتناء بهم، ولم يفكرنَّ في الكنيسة، ولم يرين النار في الكنيسة، ولم يسمعن الصرخاتِ من الكنيسة.

قال القاضي جملته نفسها إلى كلٍّ واحدةٍ من المدّعى عليهنَّ تلو الأخرى، إلا أن السِّجل أشار إلى شيءٍ مغاير، وكانت هذه العبارة تقالُ بتحذيرٍ. القول إن السجل، الذي عثر عليه في أرشيف فافن اس اس قال عكس ذلك سيكون خطأً، لكن كان صحيحًا أنه يشيرإلى شيء آخر مختلف، فلقد اشتمل على أسماء، الذين قتلوا في بيت الكاهن، والذين جُرحوا، والذين أحضروا الجرحى إلى المستشفى الميداني في شاحنة، والذين صاحبوا الشاحنة على متن عربة جيب، وأشار إلى أن الحارسات تخلفنَّ لانتظار نهاية الحرائق، لمنع أيٍّ منها من الانتشار، ولمنع أيِّ محاولةٍ للهرب تحت غطاء اللهب، وأشار إلى موت السجينات.

وحقيقة أن أسماء المدّعى عليهنَّ لم تظهر في أيِّ مكانٍ في التقرير تقترح أنَّ المدّعى عليهنَّ كنَّ وسط الحارسات اللواتي تخلفنَّ في المكان، وأن بقاء هؤلاء الحارسات في أماكنهن لمنع محاولات الهرب أوحى بأن الأمر لم ينته بإنقاذ الجرحى من بيت الكاهن، ومغادرة وسائل النقل إلى المستشفى الميداني. الحارسات اللواتي ظللنَّ في المكان، أشار التقرير إلى أنهنَّ سمحنَّ للنار أن تستعر في الكنيسة، وأنهنَّ حافظنَّ على أبواب الكنيسة مغلقة، وأنَّ من بين الحارسات اللواتي تخلفنَّ في المكان، كما أشار التقرير، كنَّ المدّعى عليهن.

لا، قالتها المدّعى عليها تلو الأخرى، ليس هذا ما حدث. التقرير كان مخطئًا، وأن الكثير منه كان دليلا على الحقيقة، التي ذُكرت عن التزام الحارسات بمنعِ النيران من الانتشار، فكيف يتحملنَّ إذًا هذه المسؤولية؟ وإن ذلك كان سخيفًا، تمامًا كالمسؤولية الأخرى عن منع محاولات الهرب تحت غطاء من النيران. محاولات الهرب؟ في ذلك الوقت ما عدن يقلقْن على أهلهنَّ، فكيف يمكنهن القلق على الآخرين، السجينات، اللاتي لم تبق منهن واحدةٌ لتهرب. لا، لقد أغفل التقرير تمامًا ما حدث، وما تم، وما كنَّ يعانينه في تلك الليلة. كيف أمكن إذن كتابة مثل هذا التقرير المزيف؟ لم يعرفن الإجابة.

إلى أن جاء دور المدّعى عليها البدينة الخبيثة، فهى كانت تعرف "اسألوها هناك!"، وأشارت إلى هانا "هى، التي كتبت التقرير. إنها المذنبة، هى من قامت بعمل كل ذلك، وأرادت أن تستخدم التقرير لتغطي على الأمر وتورطنا فيه".

سأل القاضي هانا، لكنَّه كان سؤاله الأخير، فسؤاله الأول كان "لماذا لم تفتحِ الأبواب؟"

"كنا.. كان لدينا..."، هانا كانت تحاول العثور على إجابة "لم يكن لدينا خيارٌ آخر".

"لم يكن لديكنَّ خيارٌ آخر؟"

"بعضٌ منا كان مات، وغادر الآخرون. قالوا إنهم سيأخذون الجرحى إلى المستشفى الميداني، وسيعودون ثانيةً، لكنهم كانوا يعرفون بأنهم لن يعودوا ثانيةً، وكذلك كنا، ربما لم يذهبوا حتى إلى المستشفى، فالجرحى لم تكن حالتهم بذلك السوء. كنا سنذهب معهم، لكنهم قالوا إنهم يحتاجون المكان للجرحى، وعلى أيٍّ حالٍ فهم لن يأخذونا، ولم يعبأوا بأن يكون معهم كثير من النساء طيلة الطريق، ولا أعرف إلى أين ذهبوا".

"وماذا فعلتِ؟"

"لم نكن نعرف ماذا نفعل. كلُّ شيءٍ حدث بسرعةٍ جدًا، فمع احتراق بيت الكاهن والكنيسة، والنساء والرجال، والحافلة كانت هناك للحظةٍ، ثم ذهبت في اللحظة التالية، وفجأة كنا وحدنا مع النساء اللواتي كنَّ في الكنيسة. تركوا وراءهم بعض الأسلحة، لكننا لم نكن نعرف كيف نستخدمها، وحتى لو كنا نعرف، فما الذي كنا سنفعله بها، بما أننا مجرد مجموعةٍ من النساء؟ كيف كنا سنستطيع أن نحرس كل هؤلاء النساء؟ إنَّ صفًا منهن لهو طويلٌ جدًا، حتى لو

جعلتهن ملتصقات معًا بقدرِ الإمكان، وأن تحرس مثل هذا الصف، فأنت تحتاج كثيرًا من الناس أكثر مما كنا عليه". توقفت هانا عن الكلام." ثم بدأ الصراخ، وازداد الأمر سوءًا. لو فتحنا الأبواب فإنهنَّ سيخرجنَّ مندفعاتٍ بقوة...".

انتظر القاضي لحظة" هل كنتنَّ خائفات؟ هل كنتنَّ خائفات أن السيدات كنَّ سيتغلبنَّ عليكن؟"

"إنهنَّ سيفعلنَّ ذلك...لا، لكن كيف بوسعنا أن نحافظ على النظام؟ فالفوضى ستعمُّ الأرجاء، وليس لدينا أيُّ طريقةٍ للتعامل مع ذلك. وإذا حاولن الهرب...".

ومرةً أخرى انتظر القاضي، لكن هانا لم تكمل جملتها "هل كنتنَّ خائفات لو أنهنَّ هربنَّ، قد يقبضن عليكنَّ أو يوجه إليكنَّ اتهام أو يطلق عليكنَّ النار؟"

"فقط لم يكن بوسعنا أن نتركهنَّ يهربنَّ! كنا مسؤولاتٍ عنهنَّ.. أقصد كنا نحرسهن طيلة الوقت، في المعسكر، وفي المسيرة، وذلك كان القصد، أن نكون حرسًا عليهنَّ، وأن لا ندعهنَّ يهربن، وذلك كان السبب في أننا لم نكن نعرف ماذا نفعل، وأيضًا لم تكن لدينا فكرة كيف سيحيا كثيرٌ من السيداتِ على مدار الأيام القليلة القادمة. كثيرٌ منهنَّ مات بالفعل، والأخريات اللواتي ما زلن على قيد الحياة كنَّ ضعافًا...".

أدركت هانا أن ما كانت تقوله لم يكن في مصلحتها، لكنها لم يكن بوسعها أن تقول أيَّ شيءٍ آخر. كان بوسعها فقط أن تحاول قول ما قالته بشكلٍ أفضل، أن تصف الأمر، وتشرحه بشكلٍ أفضل، لكنها كلما حكت المزيد كلما ساء موقفها، لأنها كانت على مشارف نهاية طاقة استيعابها، وأدارت وجهها إلى القاضي ثانيةً.

"ماذا كنت تفعل لو كنت مكاني؟"

لكنَّ هذه المرة كانت تعرف بأنها لن تحصل على إجابة، ولم تكن تتوقع إجابة، ولا أحد كان يتوقع أيُّ إجابة. هزَّ القاضي رأسه بصمت.

لم يكن الأمر أنه من المستحيل تخيل قدر الحيرة، وقلة الحيلة، التي وصفتها هانا. الليل، البرد، الثلج، الحريق، صراخ النساء في الكنيسة، والرحيل المفاجئ للمسؤولين عن الحارسات: كيف كان بوسع الموقف أن يكون أسهل من ذلك؟ لكن هل بوسع الاعتراف بأن الموقف كان صعبًا أن يلطف مما فعلته المدّعى عليهنَّ، أو ما لم تفعلنَّ؟ كما لو أن الأمر حادث سيارة على طريقٍ منعزلٍ في ليلة شتاءٍ باردة، مع إصاباتٍ وعربةٍ متكومة، ولا أحد يعرف ماذا يفعل؟ أو كما لو أنه صراعٌ بين واجبين ملزمين بالتساوي يحتاجان إلى تنفيذ في وقتٍ واحد؟ هكذا يكون بوسع الواحد أن يتخيل ما الذي كانت تصفه هانا، لكن لا أحد كان يريد أن ينظر للأمر على هذا النحو.

"هل كتبتِ التقرير؟"

"لقد تناقشنا جميعًا بشأن ما الذي يجب أن نكتبه، فلم نكن نريد أن تلقى باللائمةِ على الذين تخلفوا، لكننا لم نكن نريد أن نقع تحت طائلة اتهاماتٍ لم نفعلها أيضًا".

"إذن فأنتِ تقولين أنكنَّ تحدثتنَّ فيما بينكنَّ، فمن كتبه إذًا؟"

"أنتِ!".. أشارت المدّعى عليها الأخرى إلى هانا.

"لا لم أكتبه، وهل يهمُّ معرفة من كتبه؟"

اقترح أحد وكلاء النيابة استدعاءِ خبير لمقارنةِ خط اليد في التقرير، وخط يد المدّعى عليها شميتز.

"خط يدي؟ أنتم تريدون معرفة خط يدي؟".

تناقش القاضي، ووكيل النيابة ومحامي هانا إذا ما كان خط يد الشخص يظلُّ كما هو على مدار خمسة عشر عامًا، ويمكن تحديده، استمعت هانا، وحاولت عدة مرات أن تقول أو تسأل عن شيءٍ ما، ثم صارت منفعلةً جدًا، ثم قالت "لستم في حاجة إلى استدعاء خبير، فأنا أقر بأنني كتبتُ التقرير".

10

ليس لدي ذاكرة عن لقاءات سيمينار يوم الجمعة، حتى عندما أتذكر المحاكمة، ليس بوسعي تذكر أيّ الموضوعات، التي اخترناها للنقاش الدراسي، ما الذي تحدثنا عنه؟ وما الذي أردنا معرفته؟ ما الذي درّسه لنا الأستاذ؟

لكنني أذكر أيام الآحاد، فالأيام في المحكمة منحتني شراهة جديدة للألوان ولروائح الطبيعة، وفي أيام الجمع والسبت عملت على تدّبر ما فاتني من الدراسة، خلال أيام الأسبوع الأخرى، وبذلك كان بوسعي أن أتم واجباتي، وأن أجتاز الفصل الدّراسي بنجاح. في أيام الآحاد كنت أنعزلُ بنفسي.

هيليجنبرج، باحة سان ميشيل، برج بِسمارك، وحمام الفلاسفة، وضفاف النهر. لم أغيّر طريقي كثيرًا من يوم أحدٍ إلى آخر، وجدت تنوعًا كافيًا في الخضرة، التي أصبحت أغنى، وأغنى من أسبوعٍ إلى آخر، وفي فيض نهر الراين، الذي كان أحيانًا يعتمرهُ ضباب حرارةِ الجو، وأحيانًا يختفي خلف ستائرٍ من المطر، وأحيانًا تعتليه سحبٌ عاصفة، وفي روائح التوت والزهر البري في الغابات عندما تشرق عليهم أشعةِ الشمس، وفي الأرض، وفي أوراق آخر العام التالفة عندما تمطر. على أيّ حالٍ لم أحتج، أو أسعى كثيرًا وراء التنوع، فكلُّ رحلةٍ كانت تطول عن سابقتها، العطلة التالية في مكان جديد اكتشفته خلال العطلة السابقة وأحببته. لفترةٍ اعتقدتُ بأنه يجب عليَّ أن

أكون أكثر إقدامًا، وأن أرتب لنفسي الذهاب إلى سيلون، مصر، البرازيل، قبل أن أعود لكي أتعرف أكثر وأكثر على مناطق أخرى، وأن أرى الكثير فيهم.

أعدت اكتشاف المكان في الغابات، حيث أصبحت أسرار هانا واضحةً إليّ. لا شيء مميزا بها الآن، ولا كان ثمة شيءٍ مميز بها وقتها، لا أشجارُ غريبة الشكل، ولا جرف غريب الشكل، ولا منظرٍ غير معتادٍ للمدينة، لا شيء يدعو إلى مصادفاتٍ مدهشة، وأنا أفكر بهانا، كنت أمشي وأدور في المسارات نفسها أسبوعًا وراء أسبوعٍ، إلى أن تشقق ذهني عن فكرةٍ اتخذت لنفسها مسارًا آخر، وفي النهاية أفرزت خاتمتها الخاصة، عندما تم لها ذلك، اتضحت، كان بوسع الفكرة أن تصل إليَّ في مكانٍ آخر، أو على الأقل في أيٍّ مكان يسمح فيه اعتيادية محيطه ومشهده بما هو مدهشٌ بالفعل، وما لم يأت إليَّ مثل صاعقةٍ من السماء، بل راح يتنامى بداخلي، كي أتعرف عليه وأقبله. حدث الأمر، وأنا على الطريق أصعد الجبل خطوةً خطوة، وفي منتصف الطريق، وأنا أعبر فوق ينبوع ماءٍ قديمٌ، وتحت أشجارٍ قديمة وطويلة ومعتمة، ثم وأنا أخرج إلى الضوء المنبثق من بين الخمائل.

هانا لم يكن بوسعها القراءة ولا الكتابة.

لذلك كان لديها إناس يقرأون لها، ولذلك تركتني أقوم بكل الكتابات والقراءاتِ في رحلتنا على الدراجة، ولهذا السبب فقدت التحكم في نفسها ذلك الصباح في الفندق عندما وجدت قصاصتي

الورقية، وأدركت أنني افترضت أنها تعرفُ ما المكتوب فيها، كانت خائفة من أن ينكشف أمرها، ولذلك السبب تحاشت أن تتم ترقيتها في شركة الترام، فكمحصلةِ تذاكر بوسعها أن تخفيّ ضعفها، لكن سينكشف الأمر عندما تتدرج لتصبح سائقة، ولذلك أيضًا رفضت الترقية في مصنع سيمنز، وأصبحت حارسة، ولذلك السبب اعترفت بكتابة التقرير كي تهرب من مواجهة خبير الخطوط، فهل تحدَّثت لنفسها خلسةً في المحاكمة لذات السبب؟ لأنها لم يكن بوسعها قراءة كتاب الابنة أو لائحة الاتهام، ولم يكن بوسعها قراءة المقدمات، ولم يكن بوسعها بناء حجة دفاعية، وهكذا لم تتمكن من تحضير نفسها كما يليق؟ وهل كان ذلك السبب، الذي أرسلت فيه رعاياها المختارين إلى أوشفيتز؟ لتتأكد من صمتهن لو أنهن لاحظن شيئًا؟ وهل كان ذلك السبب، الذي جعلها دائمًا تختار الضعيفات منهن في أول الأمر؟

أكان ذلك السبب؟ بوسعيّ أن أفهم أنها كانت تشعر بالخزي لعدم قدرتها على القراءة والكتابة، وأنها فضّلت أن تبعدني على أن تفضح نفسها. لم أكن غريبًا كي تشعر بالخجل طالما أن سبب تصرفها منحرف، أو دفاعي، أو سري، أو مربك، أو مؤلم، لكن هل كان شعور هانا بالخزي من كونها أميةً مبررًا قويًا لسلوكها في المحكمة أو في المعسكر، أن تقبل أن تكون مجرمةً خوفًا من أن ينكشف أمرها كأمية؟ وأن ترتكب الجرائم لتحاشي الأمر نفسه؟

كم مرة سألت نفسي هذه الأسئلة منذ ذلك الوقت، وحتى الحين. لو أن دافع هانا هو الخوف من الفضيحة، فلماذا اختارت الفضيحة الفظيعة كمجرمةً عن تلك الفضيحة غير المؤذية في كونها أمية؟ أم هل كانت تصدق أن بوسعها أن ينفضح أمرها في كل هذه الأمور معًا؟ هل كانت ببساطة غبية؟ أم كانت مغرورةً بشكلٍ كافٍ وشريرةً بشكلٍ كافٍ لأن تصبح مجرمةً ببساطة كي تتحاشى الفضيحة؟

منذ ذلك الحين، وحتى الآن كنتُ أرفضُ ذلك دائمًا. لا، هانا لم تقرر ارتكاب الجريمة. إنها قررت أن ترفض الترقية في مصنع سيمنز، وتحصل على وظيفة كحارسة، ولا، لم تُوفد البنات الرقيقات الضعيفات بتحويلهنَّ إلى أوشفيتز لأنهنَّ قرأنَّ لها، لقد اختارتهنَّ ليقرأن لها لأنها أرادت أن تجعل شهرهن الأخير محتملا قبل مصيرهن المحتوم في أوشفيتز، ولا لم تقم هانا وزنًا في المحاكمة لانكشاف أمرها كأميةٍ مقابل انكشاف أمرها كمجرمة. إنها لم تحسب حسبةً، ولم تكن تناور. لقد ارتضت ما كان سيؤول إليه الأمر، وببساطةٍ لم تشأ أن تحتمل الكثير من الفضيحة. لم تكن تسعى وراء مصلحتها فقط، ولكنّها كانت تكافح من أجل حقيقتها الخاصة، وعدالتها الخاصة، لأنها دائمًا كان عليها أن تتظاهر على نحوٍ ما، ولم يكن ذلك أمرًا نزيهًا تمامًا، لقد كانت حقيقةً مثيرةً للشفقة، وعدالةً مثيرةً للشفقة، لكنه أمر يخصها وحدها، وكان الصراع من أجل ذلك صراعها وحدها.

لا بدَّ، وأنها كانت متعبةً تمامًا، فلم يكن صراعها مقصورًا على المحاكمة. لقد كانت تكافح كما كانت دائمًا تكافح، ليس من أجل أن تظهر ما بوسعها عمله، ولكن لإخفاء ما لم يكن بوسعها عمله. حياةٌ صنعت من إنجازاتٍ كانت في الحقيقةِ ملاذات مضطربة وانتصاراتٍ كانت في حقيقتها هزائم مستترة.

كنت متأثرًا بشكلٍ غريبٍ بالمفارقة بين ما كان يقلق هانا فعليًا عندما غادرت بلدتي، وما تخيَّلته وتصورته في ذلك الوقت. كنت متأكدًا من أنني دفعتها دفعًا لترحل لأنني خنتها وأنكرتها، في حين أنها كانت في الحقيقة تهرب ببساطة بعيدًا عن أن تجدها شركة الترام، لكن حقيقة أنني لم أدفعها لترحل بعيدًا لم تغيّر من حقيقة أنني خنتها، لذا كنت لا أزالُ مذنبًا، ولو أنني لم أكن مذنبًا لأن الواحد لا يمكن أن يكون مذنبًا بخيانته لمجرمٍ، إذن فأنا مذنبٌ لأنني أحببتُ مجرمة.

11

بمجرد أن اعترفت هانا بكتابتها التقرير، صارت اللعبة سهلة لبقية المدّعى عليهنَّ، عندما لم تكن هانا تتصرف بمفردها، كنَّ يدعينَّ أنها ضغطت وهددت، وأجبرت الأخريات. استولت على القيادة. هي، التي تحدثت وكتبت، وهي التي اتخذت القرارات.

أهلُ القرية، الذين شهدوا لم يستطيعوا تأكيد ذلك أو إنكاره. لقد رأوا الكنيسة محترقة تحرسها عدَّة نساءٍ لم يفتحنَّها، وهم لم يجرؤوا على فتحها بأنفسهم لقد التقوا بالنساء في الصباح التالي عند مغادرتهن للقرية، وميَّزوا أنهنَّ المدَّعى عليهن، لكن أيا منهن كانت المتحدث باسمهنَّ في الصباح يوم المقابلة، أو إذا كان أي منهن لعب دور المتحدث الرسمي، فما عاد بوسعهم تذكر ذلك.

"لكنكم لا تستطيعون الحكم إذا ما كانت هذه المدّعى عليها"، وأشار أحد محامي المدّعى عليهنَّ الأخريات إلى هانا "هي التي كانت تتخذُّ القرارات؟".

لم يكن بوسعهم القول، كيف يكون بوسعهم حتى إن أرادوا ذلك، وأمامهم المدّعى عليهن الأخريات، وصرنَ أكبر سنًا بشكلٍ ملحوظ، وأكثر إنهاكًا، وأكثر جبنًا ومرارةً، لم يكن لديهم دافعٌ لذلك. بالمقارنة بالمدّعى عليهن الأخريات، كانت هانا هي المسيطرة. بالإضافة إلى أن وجود قائد يبرئ ساحة أهل القرية، فإن فشلهم في

القيام بإنقاذ السجينات أمام قوةٍ مناوئةٍ ذات قيادةٍ شرسة بدا أفضل من فشلهم في عمل أيِّ شيءٍ أمام مجموعةٍ من نساءٍ حائرات.

ظلَّت هانا تكافح، فقد اعترفت بما هو حقيقي، وجادلت فيما هو غير ذلك. مجادلاتها أصبحت أكثر يأسًا وعنفًا، لم ترفع صوتها، لكنَّ حدَّتها الشديدة صرفت عنها هيئة المحكمة.

في النهاية استسلمت. تحدَّثت فقط عند توجيه سؤالٍ مباشرٍ إليها، وكانت إجاباتها قصيرة، ووجيزة، وأحيانًا خارج الموضوع، كما لو أنها تريدُ أن توضح للجميع أنها استسلمت، والآن ظلت تتحدث، وهي جالسة على مقعدها. رئيسُ المحكمة، الذي أخبرها، عدَّة مراتٍ منذ بداية المحاكمة، بأنه لا داعي لوقوفها، وأنَّه يمكنها أن تظلَّ جالسةً لو أرادت، كف عن هذا أيضًا، ومع اقتراب نهاية المحاكمة، كان ينتابني شعور أحيانًا بأن هيئة المحكمة استكفتْ، وأنهم أرادوا أن ينتهوا من الأمر كله، وأنهم ما عادوا مهتمين، بل كانوا في عالمٍ آخر، أو بالأحرى هنا، كما كانوا قبل اليوم، منذ أسابيعٍ بعيدة.

وأنا أيضًا كنتُ استكفيت، لكنني لم أتمكن من إلقاء الأمر وراء ظهري. بالنسبة إليَّ لم تنتهِ الإجراءات بعد، بل بدأت توًا. فقط كنتُ مراقبًا، ثم فجأة صرتُ مشاركًا، ولاعبًا، وعضوًا في هيئة المحلفين، ولم أسع، أو اخترت هذا الدور الجديد، لكنَّه كان يخصني سواء أردت ذلك أم لا، سواء فعلتُ شيئًا، أو ظللت فقط متبلدَّ الحس تمامًا.

"افعل شيئًا". كان هنالك ثمة شيءٍ واحد يمكن عمله. بوسعي أن أذهب للقاضي، وأخبره بأن هانا لا تعرف القراءة والكتابة، وأنها لم

تكن الفاعل الحقيقي، ولا الطرف المذنب بالطريقة، التي اختلقتها الأخريات، وأنَّ سلوكها في المحاكمة لم يكن دليلًا على انحلالٍ خُلقيٍّ غريب، ولا انعدام للندم، أو غرور، ولكنه وليد عدم قدرتها على معرفةِ ما هو مكتوبٌ في لائحة الاتهام، ومخطوط الكتاب، وعلى الأرجح أيضًا وليد انعدام أيِّ حسٍ لديها بالتخطيط والتدبير، وأنَّ دفاعها كان منقوصًا بشكلٍ شديد، وأنها كانت مذنبة، لكن ليس على النحو، الذي تبدو عليه.

قد لا أتمكن من إقناع القاضي، لكنني كنت سأعطيه ما يكفي لإعادة التفكير والتحقيق أكثر من ذلك. في النهاية، سيتم إثبات أنني كنتُ على حق، وأنَّ هانا ستُعاقب، ولكن على نحوٍ أقل قسوة، ربما سيتوجب عليها الذهاب إلى السجن، لكن سيطلق سراحها في القريب. ألم يكن ذلك ما كانت تكافح من أجله؟

نعم إن ذلك ما كانت تكافح من أجله، لكنها لم تشأ أن تفوز بنصرٍ ثمنه افتضاح أمر أميتها. ما كانت لتريد مني أن أقايض صورتها حيال نفسها ببضعِ سنينٍ في السجن. كان بوسعها عملُ ذلك النوع من المقايضة بنفسها، لكنها لم تفعل، مما يعني أنها لم تكن تريدُ ذلك. إحساسها بنفسها كان أكثر قيمةً من سنواتِ السجن لها.

لكن هل كان الأمر يستحقُ كلَّ ذلك فعلًا؟، ما الذي جنتهُ من تلك الصورةِ المزيفة، التي ورطتها وأقعدتها وشلَّتها؟ فبكل الطاقة، التي بذَّلتها من أجل ترميم الكذبة. كانَ بوسعها أن تتعلم القراءة والكتابة منذ وقتٍ طويل.

حاولت أن أتحدَّث عن المشكلة مع أصدقائي. تصوَّروا شخصًا ما يعدو بقصدٍ إلى دماره الشخصيّ، وبإمكانك أن تنقذه: هل تتقدم وتنقذه؟ تخيَّلوا أن هناك عمليةٌ جراحية، وأن المريض يتعاطى المخدرات وهذه المخدرات لا تتماشى مع المخدِّر، لكنَّ المريض يخجل من كونه يتعاطى المخدرات، ولا يريد أن يخبر طبيب التخدير بذلك: هل تتحدَّثون مع طبيب التخدير؟ تخيَّلوا محاكمة سيُدان فيها المدَّعى عليه لو أنه لم يعترف أنه أعسر: هل تخبرون القاضي بما يجري؟ تخيَّلوا أنه مثلي جنسيًا، وأنَّه لا يمكنه ارتكاب الجريمة لأنه مثلي جنسيًا، لكنه يخجل من كونه مثليّا. ليس السؤال إذا ما كان المدّعى عليه يجب أن يخجل من كونه أعسر أَو مثليّا. فقط تخيَّلوا أنه كذلك.

12

قررت أن أتحدَّث إلى والدي. ليس لأننا كنا قريبين من بعضنا تحديدًا، فوالدي كان شخصًا كتومًا لا يفصح عن مشاعره، ولم يستطع مشاركة أبنائه هذه المشاعر، أو حتى التعامل مع المشاعر، التي كنا نكنَّها له. لوقتٍ طويل كنت أصدق أنه لا بدَّ، وأن هناك ثروة أو كنزا مخبوءا وراء ذلك السلوك الكتوم، لكنني فيما بعد كنتُ أتساءل إن كان هناك ثمة شيءٍ وراء ذلك كلّه، ربما كان مليئًا بالمشاعر عندما كان ولدا صغيرا وشابا، ومع عدم إفصاحه عنها جعلها على مدار السنين تذبل وتموت.

لكن، وبسبب المسافة بيننا سعيّت إليه الآن. أردتُ أن أتحدث إلى الفيلسوف، الذي كتب عن كانط وهيجل، الذي، كما أعرف، عكف بنفسه على القضايا الأخلاقية. لا بدَّ وأنه في موضعٍ جيد يخوله لاكتشاف المشكلة على نحوٍ مجرد، على عكس أصدقائي، لكي أتحاشى أن أَعلّق في عدم ملاءمة أمثلتي.

عندما كنَّا نريد ونحن أطفال التحدث إلى والدنا، كان يعطينا مواعيد مثلنا مثل تلاميذه. كان يعمل في البيت، ويذهب فقط إلى الجامعة لكي يعطي المحاضرات والسيمينارات. الزملاء والطلبة، الذين كانوا يريدون التحدُّث إليه كانوا يأتون لرؤيته في البيت. أتذكر صفوف الطلبة المستندين على الحائط في الممر، وهم ينتظرون دورهم، البعض يقرأ، والبعض ينظر إلى صور المدن المعلقة في الممر والبعض

الآخر يتطلع في الفراغ، جميعهم ساكتون فيما عدا تحيةً خجولة عندما كنَّا نمرُ عليهم، ونحن أطفال في الممر، ونقول لهم أهلًا. ولم يكن علينا الانتظار في الصالة إذا حدد لنا أبونا موعدًا، لكن كان علينا أيضًا أن نكون على بابه في الموعد المحدد نطرق الباب كي يسمح لنا بالدخول.

كنت أعرف مكتبيّ أبي. النوافذ في المكتب الأول، الذي مررت فيه هانا أصابعها على الكتب، كانت تطل منه على الشوارع والبيوت، أما النوافذ في المكتب الثاني، فكانت تطل على سهول نهر الراين، فالمنزل، الذي انتقلنا إليه في أوائل الستينيات، الذي استقر فيه والدّي، بعد أن كبرنا، كان يقبع على تلٍ كبير أعلى المدينة. في كلا المكانين لم تفتح نوافذ الغرفة على العالم القابع وراءها، لكنها ظلّت مغلقة بإحكام، وتركت العالم معلقًا داخل إطارها مثل صورة. كان مكتبُ أبي كبسولةً صنعت فيها الكتبُ والأوراق والأفكار والغليون والسيجارة ودخان السيجار مجالًا قويا يختلف عن العالم الخارجي.

سمح لي أبي بأن أقدم مشكلتي في شكلها المجرد مع أمثلتي. "لا بدَّ أن الأمر يتعلق بالمحاكمة، أليس كذلك؟"، لكنه هزَّ رأسه ليبين أنه لم يكن يتوقع إجابة، أو يريد أن يضغط عليّ أو أن يسمع أيَّ شيءٍ لم أكن مستعدًا لإخباره به طواعيةً، ثم جلس، رأسه مائل، ويداه تتشبثُ بذراعي مقعده، ثم أخذ يفكر. لم ينظر إليّ. تفحصتُهُ، شعره الرمادي، وجهه الحليق بغير اعتناء، كما هو الحال دائمًا، الخطوط العميقة الممتدة بين عينيه، ومن عند فتحتي أنفه إلى زاويتي فمه، ثم انتظرت.

عندما أجابني، رجع بالأمر إلى البدايات. شرح لي عن الفرد، وعن الحريّة والكرامة، وعن الإنسان كموضوع، وعن حقيقة أنَّه لا يتسنى للواحد أن يحيله إلى مجرد شيءٍ "ألا تذكر كيف كنتَ غاضبًا عندما كانت أمك، وأنت طفلٌ صغير، تعرف ما هو الأفضل لمصلحتك أفضل منك؟ ولأي مدى بوسع الواحد أن يتصرف على هذا النحو مع الأطفال، فهذه مشكلةٌ حقيقية. إنها مشكلةٌ فلسفية، لكن الفلسفة لا تعبأ بالأطفال، إنها تتركهم إلى علم التربية، حيث لا يكونوا في أيدٍ أمينة. نست الفلسفة الأطفال"، وابتسم لي "نسيتهم للأبد، وليس لبعض الوقت بالطريقة نفسها، التي نسيتكم بها".

"لكن..."

"لكن مع الكبار لا أجد مطلقًا مبررًا في توجيه آراء الآخرين لما هو جيدٌ لهم متجاوزين بذلك أفكارهم الخاصة عما هو جيدٌ لمصلحتهم الشخصية".

"حتى وإن صاروا سعداء بذلك فيما بعد؟"

هزَّ رأسه" إننا لا نتحدَّثُ الآن عن السعادة، إننا نتحدَّث عن الكرامة والحرية، حتى وأنت طفلٌ صغير أنت تدرك الفرق. لم يكن مريحٌ لك أن أمك كانت دائمًا على حق".

الآن أحبُ أن أتذكر تلك المحادثة مع أبي. كنت نسيتها، حتى بعد وفاته، وعندما بدأتُ في التفتيش في أعماق ذاكرتي عن الأحداث السعيدة والأنشطة والخبرات المشتركة معه، وحين عثرت عليها كنتُ

مندهشًا وفرحًا، فأنا في الأصل كنت في حيرة من خلط أبي بين التجريد والبنيوية، لكنني في النهاية فهمت أن ما قاله كان يقصد به أنه لا يجب عليّ أن أتحدَّث إلى القاضي، وأنني بالفعل لا أملك الحق في التحدِّث إليه، وكنتُ مرتاحًا لذلك.

لاحظ أبي ارتياحي "أهكذا تحب فلسفتك؟"

"حسنًا لا أعرف إذا ما كان يجب على الواحد التصرف في هذه الظروف، التي وصفتها، لم تسعدني فكرة أن الواحد ملزم، وأنه غير مسموحٍ له فعلًا عمل أيَّ شيءٍ على الإطلاق، لقد وجدت ذلك...". لم أعرف ماذا أقول. ارتياح؟ راحة؟ توافق؟ هذا لا يبدو أخلاقيًا ومسؤولًا، أتبدو عبارة "أعتقدُ بأن ذلك جيد" أخلاقية ومسؤولة، لكنني لم أتمكن من قول ذلك، واعتقدت بأنه الأمر مريح أكثر من كونه أيُّ شيءٍ آخر.

"ملائم؟". اقترح أبي.

أومأتُ برأسي، وهزّزت كتفي.

"لا مشكلتك ليس لها حلٌ ملائم. بالطبع يجب على الواحد أن يتصرف، كما لو أن الموقف، كما وصفته إحدى المسؤوليات المتراكمة أو الموروثة. لو يعرف الواحد ما هو الجيد لشخصٍ آخر هو في المقابل أعمى عن ذلك، فلا بدَّ إذن من محاولة أن يفتح له عينيّه، ثم يترك له الكلمة الأخيرة، لكن على الواحد أن يتحدَّث إليه، إليه فقط، وليس إلى شخصٍ آخرٍ من وراء ظهره".

أتحدَّث إلى هانا؟ ماذا سأقول لها؟ إنني رأيتُ أكذوبة حياتها الطويلة؟ وإنها في طريقها إلى التضحية بكلٍّ حياتها من أجل هذه الكذبة السخيفة؟ أنَّ تلك الكذبة لم تكن تستحق هذه التضحية؟ وأنَّها لهذا السبب عليها أن تقاتل لأن تظلَّ في السجن أقلَّ مما يجبُ أن تظلَّ به، لأنَّ هناك الكثير، الذي يمكنها أن تقوم به في حياتها فيما بعد؟ هل بمقدوريّ أن أحرمها من كذبةِ حياتها، دون أن أفتح لها طاقةً للمستقبلِ؟ لم يكن عندي فكرة كيف سيكون ذلك، ولم أكن أعرف كيف أواجهها وأقول لها أنه بعد ما فعلته من الصائب أنَّ يكون مستقبلها القصير، أو المتوسط هو السجن. لم أكن أعرف كيف أواجهها، وأقول أي شيءٍ على الإطلاق. لم أكن أعرف كيف أواجهها.

سألتُ والدي: "وماذا لو لم تستطع التحدُّث إليه؟"

نظر إليَّ في شك، كنت أعرف بنفسي أن هذا السؤال كان خارج الموضوع، فلم يكن هناك شيءٌ آخر لتفسيره أخلاقيًا. عليَّ فقط أن أتخذ القرار.

"لم أتمكن من مساعدتك"، نهض أبي، وكذلك فعلت "لا لا.. يجب عليك أن تنصرف، إن ظهري فقط يؤلمني"، وأعاد ظهره للوراء، بينما أخذت يداه تضغط على كليتيه "لا أستطيع أن أقول آسف لا يمكنني مساعدتك. كفيلسوف أقصد، وهذا ما كنت تخاطبهُ فيّ، أما كوالدك فأجدُ أن عدم قدرتي على مساعدة أولادي أمر لا يُحتمل".

انتظرت، لكنَّه لم يقل شيئًا آخر. اعتقدتُ بأنَّه يسهل على نفسه الأمر، فأنا أعرف حين يكون في استطاعته الاعتناء بنا أكثر، وكيف يكون في استطاعته مساعدتنا أكثر، ثم اعتقدتُ بأنه ربما أدرك هذا بنفسه، وأنه وجد بالفعل أنه من الصعب تحمله، لكن على كلٍ لم يكن لدي شيءٌ لأقوله له. كنتُ محرجًا، ويعتريني شعورٌ بأنه هو الآخر محرجٌ أيضًا.

"حسنًا إذن...".

"يمكنك أن تأتي في أيِّ وقت". نظر إليَّ أبي.

لم أصدِّقه، وهززتُ رأسي بالإيجاب.

13

في يونيو، سافرت هيئة المحكمة إلى إسرائيل لمدة أسبوعين. استغرقت جلسات الاستماع هناك بضعة أيام، لكن القاضي ووكلاء النيابة جعلوا منها رحلة قضائية وسياحية، القدس، تل أبيب، النجف، والبحر الأحمر. بلا شك تم كلُّ ذلك بشكلٍ علنيّ، كما تقتضي قواعد السلوك، والعطلات وحسابات التكاليف، إلا أنني وجدتُ الأمر مع ذلك غريبًا.

كنتُ خططتُ لأن أكرس هذين الأسبوعين لدراستي، إلا أن الأمر لم يسر بالطريقة، التي تخيلتها، وخططتُ لها. لم أتمكن من التركيز بشكلٍ كافٍ لتعلم أيِّ شيء، سواء من أساتذتي أو من كتبي، ومرارًا وتكرارًا، راحت أفكاري تهيم ضائعة بين الصور.

رأيتُ هانا بجوارِ الكنيسةِ المحترقة، متجهمة الوجه، في زيٍّ أسود، مع كرباج خيل. رسمت دوائر في الثلج بكرباجها، ثم ضربت به على حذائها الطويل. رأيتها بينما يُقرأ لها. استمعت بحرص دون أن تسأل أو تعلق، وعندما انقضت الساعة أخبرت القارئة بأنها ستنتقل إلى أوشفيتز في الصباح التالي. القارئة، وهى مخلوقةٌ ضعيفةٌ ذات حزمةٍ من شعرٍ أسود، وعندها قصرُ نظر، أخذّت تجهش في البكاء. ضربت هانا الحائط بيدها، فجاءت امرأتان، من المسجونات أيضًا يرتدينَّ ملابس مخططة، جذبتا القارئة بعيدًا. رأيتُ هانا تمشي في ممرات المعسكر، ثم وهى ذاهبة إلى ثكنات المسجونات لتشرف على أعمال

البناء. قامت بكل ذلك بالوجه المتجهم نفسه، والعيون الباردة، والفمِ المزموم والمسجوناتِ منحنياتٍ على أعمالهنَّ ملتصقاتٍ بالحائط، وفي الحائط، يُرِدنَّ لو اختفين داخل الحائط. أحيانًا كان هناك كثير من السجينات يجتمعن معًا، أو يجرين من مكانٍ لآخر، أو يقفنَّ في صف أو يمشين، بينما هانا واقفة بينهنَّ صارخة آمرةً، ووجهها الصارخ قناع من القبح، وتسيّر الأمور بكرباجها. رأيتُ برج الكنيسة ينهارُ على السطح، والشررُ يتطاير، وسمعت يأس النساء، ثم رأيتُ الكنيسة المحترقة في الصباح التالي.

بجوار هذه الصور رأيتُ صورًا أخرى. هانا، وهى ترفعُ جواربها في المطبخ، وهى تقفُ بجوارِ حوض الاستحمام تحمل المنشفة، وهى تستقلُ دراجتها بتنورتها المتطايرة، وهى تقفُ في مكتب أبي، وهى ترقص أمام المرآة، وهى تنظرُ إليّ في حمام السباحة، هانا وهى تستمعُ إليّ، تتحدَّثُ إلي، تضحكُ لي، وتمارس الحب معي، هانا تمارس الحبَّ معي بعيونٍ باردة، وبفمٍ مزموم، وتستمعُ إليّ بصمتٍ، وأنا أقرأ لها، وفي النهاية تضرب الحائط بيديها، وتتحدَّثُ لي في وجهٍ يبدو كالقناعِ. السيئ في تلك الأحلام هو أن هانا القاسية والشديدة أثارتني جنسيًا، فكنتُ أستيقظُ من تلك الأحلام ممتلئًا بالحنين وبالخجلِ وبالغضب، وممتلئًا بالخوف مما كنتُ عليه فعلًا.

كنتُ أعرف أن صوري المتخيَّلة كانت كليشيهاتٍ فقيرة، وكانت ظالمةٌ لهانا، التي عرفتها، وكنت لا أزال أعرفها، لكنَّها كانت ما تزالُ

صورًا قوية للغاية. قوضت ذكرياتي الفعلية مع هانا، وتداخلت مع صور المعسكر، التي كانت في رأسي.

عندما أفكر اليوم بتلك السنوات أدركُ كم كانت فعليًا الملاحظات المباشرة قليلةٌ، وكم كانت قليلةٌ تلك الصور، التي جعلت من الحياةِ والقتل في المعسكرات واقعًا. كنا نعرفُ بوابة أوشفيتز بالنقوش، التي كانت عليها، وقطع الخشب المتلاصقة، وأكوام الشعر والنظارات والبدلات، وكنّا نعرف المبنى، الذي شكلّ المدخل إلى بيركانو مع البرج، والجناحين، وممر القطارات، ومن بيرجن بيلسن أكوامُ الجثث المعثور عليها، وصورها قوات الحلفاء عند التحرير. كنّا على درايةٍ ببعضِ شهادات السجناء، إلا أن كثيرًا منها سرعان ما نشر بعد الحرب، ولم يُعاد إصدارها ثانيةً إلا في الثمانينيات، وفي تلك الفترة اختفت من قوائم الناشرين. اليوم هناك الكثير من الكتب والأفلام، التي تجعل من عالم المعسكرات جزءًا من خيالنا الجمعي، وتكمل حياتنا اليومية العادية، وأصبح خيالنا يعرف طريقه بخصوصها، منذ المسلسل التلفزيوني "هلوكوست"، وأفلام مثل "اختيار صوفي"، خاصة فيلم "قائمة شيندلر"، صار خيالنا يتحركُ فيها، وليس فقط يتعرف عليها، بل يكملها، وينحصر فيها، لكن وقتها كان الخيال بالكاد متقشفًا، وكانت الحقيقةُ المحطمة لعالم المعسكرات تبدو وراء عملياته، وأن الصور، التي التقطتها قوات التحالف وشهادات الناجين برقت في الرأس مرارًا وتكرارًا، إلى أن تجمدتْ وصارت كليشيهات.

14

قررت أن أنطلق. لو كنت قادرًا على الذهاب إلى أوشفيتز اليوم التالي، لكنتُ ذهبتُ في التو، لكن الأمر كان سيستغرق أسابيع للحصول على تأشيرة، لذا ذهبتُ إلى ستروثوف في ألزاس. كان أقرب معسكر اعتقال. لم يسبق لي أن رأيت واحدًا أبدًا. أردتُ الواقع لكي أخرج من الأكليشيهات.

سافرتُ متطفلًا على السيارات، أتذكر ركوبي في شاحنة مع سائق كان يتجرع زجاجة بيرة تلو الأخرى، وسائق مرسيدس كان يقود وهو يرتدي قفازات بيضاء، بعد ستراسبرج كنتُ محظوظًا، فالسائق كان متوجهًا إلى ستشيرمك، مدينةٌ صغيرة لم تكن بعيدةً عن ستروثوف.

عندما أخبرت السائق بوجهتي، سكت. تطلَّعتُ إليه، لكنني لم أتمكن من معرفةِ السبب، الذي جعله يتوقف فجأةً عن الكلام في وسط دردشةٍ مرحة. كان في منتصف العمر، ذو وجهٍ هزيل ووحمةٍ حمراء داكنة، أو أثر جرحٍ على صدغهِ الأيمن، كان شعره الأسود مفروقًا بعناية، وممشطًا في خصلات، ثم أخذ ينظر إلى الطريق في تركيز.

ظهرت تلال جبال الفوج أمامنا. كنا ننطلق عبر حقول العنب في وادٍ مفتوح يرتفعُ قليلًا. عن اليمين وعن الشمال، غابات مختلطة نمت على المنحدرات، وأحيانًا كان هناك محجر أو مصنع ذو سطحٍ له حديدٌ مموج، أو مصحةٍ قديمة، أو فيلا ذات أبراجٍ كبيرة بين أشجارٍ

عالية، وقضبانٍ حديدية تسير بمحاذاتنا، أحيانًا إلى اليمين وأحيانًا إلى اليسار.

ثم تحدَّث الرجل مرةً أخرى. سألني عن سبب زيارتي إلى ستروثوف، فأخبرته عن المحاكمة، وعن افتقادي للمعرفة الأولية.

"آه أنت تريد أن تفهم لماذا بوسع الناس ارتكاب مثل هذه الأشياء الفظيعة". بدا من صوته وكأنه ساخر قليلًا، لكن ربما كانت نبرة الصوت هي السبب واختيار الكلمات، وقبل أن أتمكن من الرد عليه، استرسل قائلًا" ما الذي تريد أن تفهمه؟ أن الناس تقتل بدافع الشغف، أو الحب، أو الكره، أو من أجل الشرف، أو الانتقام، أهذا ما تريد أن تفهمه؟"

أومأت برأسي.

"أنت أيضًا تفهم أن الناس تَقتل من أجل المال أو السلطة؟ وأن الناس تَقتل في الحروب وفي الثورات؟"

أومأت برأسي ثانيةً "لكن...".

"لكن الناس، الذين قُتلوا في المعسكرات لم يفعلوا شيئًا للأشخاص الذين قتلوهم؟ أهذا ما تريد أن تقوله؟ هل تقصد أنه لم يكن هناك سبب للكره، ولا للحرب؟"

لم أشأ أن أومى برأسي مرةً أخرى. ما قاله كان صحيحًا، لكن ليس بالطريقة، التي قالها.

"أنت محق، لم تكن هناك حرب، ولا سبب للكراهية، لكن الجلادين لا يكرهون الناس، الذين يعدمونهم، إنهم يعدمونهم جميعًا بالطريقة نفسها لأنهم مأمورون بذلك؟ هل تعتقد بأنهم فعلوا ذلك لأنهم مأمورون؟ هل تعتقد بأنني أتحدث عن الأوامر والطاعة، وأن الحرس في المعسكرات كانوا خاضعين للأوامر، وعليهم أن ينفذوها؟"، ثم ضحك ساخرًا "لا، أنا لا أتحدث عن الأوامر والطاعة. الجلاد ليس خاضعًا لأي أمر. أنه يؤدي عمله، ولا يكره الناس الذين يعدمهم، ولا يأخذ ثأره منهم، إنه لا يقتلهم لأنهم عقبةً في طريقه، أو لأنهم يهددونه أو يهاجمونه. إنهم مجرد أمر غير ذي بال بالنسبة لهم لدرجة أنه بوسعه أن يقتلهم بالسهولةِ نفسها، التي يمكنه بها ألا يقتلهم".

نظر إليَّ "لا اعتراضات؟ هيا، أخبرني بأنه لا يمكن لشخص أن يكون غير مبال بإنسان آخر لهذه الدرجة. أليس ذلك ما يعلمونكم إياه؟ التضامن مع كلِّ شيءٍ له وجهٌ بشري؟ كرامةً إنسانية؟ تبجيل الحياة؟"

كنت غاضبًا وبلا حيلة. بحثت عن كلمةٍ، جملةٍ تمحو ما قاله وتخرسه.

"ذات مرةٍ"، تابع كلامه، "رأيتُ صورةً لمجموعةٍ من اليهود يطلق عليهم النار في روسيا. كانوا مصطفين في صفٍ طويل وعراة، وبعضُ منهم كان واقفًا على حافة حفرةٍ، ومن ورائهم جنودٌ معهم بنادق، ويطلقون عليهم النار في العنق. كان ذلك في محجرٍ، وأعلى اليهود والجنود كان يجلس ضابط على حافة صخرة يطوح ساقيه ويدخن

سيجارة، وكان يبدو عابسًا قليلًا، ربما لم تكن الأشياء تمضي سريعةً بشكلٍ كافٍ بالنسبة له، لكن كان هناك شيء مُرّضٍ، بل يدعو للحبور على تعابير وجهه، ربما لأن عمل اليوم كاد أن يوشك على الانتهاء، وحان وقت الذهاب إلى البيت. لم يكن يكره اليهود. ولم يكن...".

"أكان أنت؟ الجالس على حافة الصخرة...".

أوقف السيارة، وابيّض وجهه تمامًا، ولمعت العلامة، التي على صدغه "انزل!"

نزلت، وأدار العجلات بشكلٍ سريعٍ لدرجةٍ دفعتني للقفز جانبًا، وظلّلت أسمعه، وهو يتجاوز المنحنيات القليلة التالية، ثم سكت كل شيء.

مشيتُ على الطريق. لم تمر بقربي سيارة، ولم تأتِ واحدة من الجهةِ المقابلة. سمعت الطيور، والريح بين الأشجار، ومن فينة لأخرى كنتُ أسمع هدير مجرى مائي. في غضون ربع ساعة وصلتُ معسكر الاعتقال.

15

عدت إلى هناك ثانيةً منذ فترة لم تكن طويلة. كان الفصل شتاءً، واليوم صافيا وباردا، بعد ستشيرمك كانت الغابات كلها ثلجية، والأشجار مغطاة باللونِ الأبيض، وكذلك الأرض، كانت بيضاء هى الأخرى. أراضي معسكر الاعتقال، مساحة ممتدة على منحدر جبلي يطلُّ على جبال الفوج، علاها البياض في ضوء الشمس الساطع. الخشبُ المطليُّ باللون الأزرق والرمادي لأبراج المراقبة ذات الطابقين والطوابق الثلاثة، والثكنات ذات الطابق الواحد صنعت تناسقًا جميلًا مع الثلج. صحيح أن المدخل كان محاطًا بأسلاكٍ شائكة، ومكتوبا عليه معسكر اعتقال ناتزوييلير-ستروثوف مع سور مزدوج من الأسلاكِ الشائكة يحيطُ بالمعسكر، إلا أن الأرض بين الثكنات المتبقية، حيث كانت تقف من قبل ثكناتٌ أخرى جنبًا إلى جنب، ما عاد تُظهر أي أثر للمعسكر تحت غطاء الثلج المتلألأ. كان يمكن أن تكون منزلقًا ثلجيًا للأطفال، عند قضائهم عطلتهم الشتوية في الثكنات المبهجة ذات النوافذ البيتية المربعة، التي تكاد تحسبها بيوتًا تقدم الكيك والشيكولاتة الساخنة.

كان المعسكر مغلقًا. تجولت حوله في الثلج، وابتلت قدماي. كان بوسعي أن أرى كل المساحة، وتذكرت كيف أنني في زيارتي الأولى نزلتُ على الدرج المؤدي إلى أساس الثكنات السابقة. تذكرت أيضًا أفران حرق الجثث، التي كانت معروضةً في ثكناتٍ أخرى، وثكنة

كانت تحتوي على زنزانات. تذكرت محاولاتي العابثة، حينها، لتخيُّل المعسكر بتفاصيل واضحة، وقد امتلأ بالمساجين والحرس والمعاناة. حاولت بالفعل، نظرتُ إلى الثكنة، أغلقت عيني، وتخيَّلت صفًا وراء صفٍ من الثكنات، وقستُ الثكنة، وحسبتُ عدد شاغليها من كتيّب المعلومات، وتخيَّلت كم كانت مزدحمة، واكتشفتُ أن الدرج بين الثكنات كان أيضًا يستخدم لتفقد الطابور، وعندما نظرت من أسفل المعسكر إلى أعلاه، ملأتُه بصفوف من الظهور، إلا أنَّ محاولاتي كلُّها راحت هباءً، وتملكني شعورٌ مقيتٌ جدًا، ومخجلٌ جدًا بالفشل.

في طريقِ العودة، أبعد قليلًا من سفح التل، وجدتُ بيتًا صغيرًا مقابلا لمطعمٍ عليه علامة تشير إلى أنه كان من قبل غرفة غاز. كان مدهونًا باللون الأبيض، وله أبوابٌ ونوافذٌ محاطةٌ بحجرٍ رملي، وربما كان زريبةً، أو ورشةً، أو مكانًا لمبيت الخدم. هذا المبنى، أيضًا، كان مغلقًا، ولا أتذكر إذا ما دخلته في زيارتي الأولى أم لا. لم أخرج من سيارتي. جلستُ لبعض الوقت والمحرك دائر، وأخذت أتطلّع، ثم قدت السيارة وانطلقت.

في البداية كنتُ محرجًا من التجول إلى البيت عبر القرى الألزاسية بحثًا عن مطعمٍ أتناول فيه الغداء، لكن سبب حرجي لم يكن نتاج شعورٍ حقيقي، لكن بسبب التفكير في الطريقة، التي من المفترض أن يشعر بها الواحد بعد زيارته لمعسكر اعتقال، ولاحظت ذلك بنفسي، وهززتُ كتفيَّ باستهجان، وعثرتُ على مطعم يدعى "اوبتيت

جرسون" في قريةٍ على منحدر جبال الفوج. كانت طاولتي تطل على مساحة شاسعة.

في المرة السابقة، التي مشيتُ فيها حول أراضي معسكر الاعتقال حتى أُغلقت، ثم جلستُ أسفل الحجر التذكاري المنتصب أعلى المعسكر، وأخذت أنظر لأسفلٍ على الأراضي. شعرتُ بفراغٍ كبير في داخلي، كما لو أنني كنتُ أبحث عن نظرة، ليست خارجي، ولكن في داخلي أنا، واكتشفتُ أنه لا يوجد شيء يُعثر عليه.

ثم أظلمت السماء، وكان عليَّ أن أنتظر ساعةً، حتى يسمح لي سائقُ شاحنةٍ مفتوحةٍ صغيرة بأن أعتليها، وأجلس في صندوقها وأخذني إلى القريةِ المجاورة، وتخليت عن فكرة أن ألتمس توصيلةً مجانية للعودة للبيت يومها. وجدت غرفةً رخيصة في مبيتٍ بالقرية، وتناولت قطعة ستيك رفيعة مع بعض البطاطس المقلية والفاصولياء في غرفة الطعام.

كان يلعبُ أربعة أشخاصٍ الكوتشينة بصوتٍ عالٍ على الطاولة المجاورة، وانفتح الباب، ودخل رجلٌ عجوز دون أن يُحيي أحدا. كان يرتدي بنطالًا قصيرًا، وكان ذو قدمٍ خشبية. طلب بيرةً، وهو جالسٌ على البار، وكان مشيحًا بوجهه عن الطاولة المجاورة، حتى صار كلَّ ما يرونه هو ظهره ومؤخرة صلعته الكبيرة. ترك لاعبو الكوتشينة أوراقهم، ووصلوا إلى نافضات السجائر، والتقطوا أعقاب السجائر، واستهدفوه بها، وألقوها عليه. طوّح الرجل الجالس على البار بيديّه وراء ظهره، وكأنه يهشُ ذبابًا، ووضع ساقي الحانة بيرة الرجل أمامه، ولم يقل أحد كلمةً واحدة.

لم أتمكن من تحمل ذلك. قفزتُ، وذهبت إلى الطاولة المجاورة "أوقفوا ذلك!"، كنتُ أنتفض من شدَّة الغضب. في تلك اللحظة، أخذَّ الرجل شبه المعاق، ذو الحجلة يمسح على ساقه، ثم فجأة حمل ساقه الخشبية بكلتا يديه، ووضعها بقوةٍ على الطاولة، حتى اهتزت معها الأكواب الزجاجية ومنافضُ السجائر، ثم سقط في مقعدٍ خاوٍ، وهو يضحك ضحكةٍ حادة بلا أسنان في حين أخذ الآخرون يضحكون معه في قهقهةٍ تفوح منها رائحة البيرة "أوقفوا ذلك!". ضحكوا وهم يشيرون إليَّ "أوقفوا ذلك!"

في أثناء الليل كانت الريح تعوي حول المنزل، لم أكن أشعر بالبرد، ولم تكن ضجة الرياح، وقرقعةِ الشجرة الموجودة أمام البيت والفرقعة، التي تحدِثها المظلةُ من فينةٍ لأخرى كافين لجعلي مستيقظًا، لكنني صرتُ أكثر قلقًا بداخلي، إلى أن بدأ جسمي كله في الارتجاف. شعرتُ بالخوف، ليسَ تحسبًا لوقوع شيءٍ سيئ، ولكن على نحوٍ بدني. استلقيتُ هناك، وأنا أسمعُ الريح، شاعرًا بالراحة في كلِّ مرةٍ تضعفُ فيها وتنتهي، ومفزوعًا كلما اشتدت ثانيةً دون أن أعرف كيف سأغادر السرير في اليوم التالي، وألتمس توصيلةً للعودةِ إلى البيت، وأستكملُ دراستي، وأن يكون لدي يومًا ما مستقبلٌ مهني وزوجة وأطفال.

أردت أن أتفهم جريمة هانا، وأن أدينها في الوقتِ نفسه، لكنه كان أمرًا مريعًا للغاية، ففي الوقت الذي كنت أحاول فيه تفهم الجريمة، كان ينتابني أحساسٌ بأنني أخفق في إدانتها، كما ينبغي،

وعندما أدينها كما ينبغي، لم يكن هناك مجالٌ للفهم، لكن حتى، وأنا أريدُ أن أفهم هانا، فإن فشلي في فهمها كان يعني خيانتي لها مرةً أخرى. ولم أتمكن من حلِّ هذا. أردتُ أن أقوم بكلتا المهمتين، التفهم والإدانة، لكنه كان من المستحيل فعلُ الأمرين.

اليوم التالي كان يومًا صيفيًا جميلًا. كان التماس توصيلةٍ أمرًا سهلًا، وعدتُ للبيت في غضون بضع ساعات. مشيتُ عبر المدينة، كما لو أنني كنتُ خارجها لفترةٍ طويلة، الشوارع والمباني والناس بدَّت لي غريبة، لكن ذلك لم يكن يعني أن العالم الآخر لمعسكرات الاعتقال كان أقرب لي. انطباعاتي عن ستروثوف التحقت ببعض صوري الموجودةِ بالفعل لأوشفيتز وبيرجن بيلسن، وتجمدت معها.

16

ذهبتُ بالفعل إلى رئيس المحكمة في النهاية. لم أتمكن من جعل نفسي تزور هانا، لكنني أيضًا لم أتمكن من احتمال ألا أفعل شيئًا.

لماذا لم أرتب للتحدث إلى هانا؟ لقد تركتني، خدعتني، ولم تكن الشخص، الذي كنت أظنه أو أتخيله، ومن كنت أنا بالنسبةِ لها؟ القارئ الصغير، الذي استخدمته شريك فراش نالت منه متعتها؟ هل كانت سترسلني إلى غرفة الغاز لو أنها لم تكن قادرةً على تركي، ولكن أرادت أن تتخلص مني؟

لماذا أجد عدم فعلي لأي شيء أمرا يفوق الاحتمال؟ قلتُ لنفسي عليَّ أن أمنع ظلمًا. عليَّ أن أتأكد أن العدالة أخذت مجراها، بغضِّ النظر عن كذبةٍ هانا، التي ظلَّت معها طيلة حياتها، من أجل هانا وضدها لذا عليَّ أن أتحدث، لكنني حقيقةً لم أكن مهتمًا بالعدالة. لم أستطع أن أترك هانا على النحو، الذي كانت عليه أو الذي أرادت أن تكون عليه. كان عليَّ أن أتدخل معها، أن يكون لدي أثرًا وتأثيرا عليها على نحوٍ ما، إن لم يكن بشكلٍ مباشر فبشكلٍ غير مباشر.

كان القاضي يعرف عن مجموعة السيمينار الخاصة بنا، وكان سعيدًا باستقبالي، والتحدُّث بعد الجلسةِ في المحكمة. طرقتُ الباب، ودعيتُ للدخول، ورحب بي، وقدم لي المقعد أمام مكتبه. كان جالسًا وراء المكتب، ومرتديا قميصًا، وروبه معلق على ظهر مقعده، كان

مرتديا إياه عند جلوسه، ثم خلعه. بدا مسترخيًا، رجل أنهى يوم عمله، وكان راضيًا بذلك، وبدون تعابير الوجه المغتاظ، الذي كان يتخفى وراءه أثناء المحاكمة، كان له وجهُ موظفٍ حكومي لطيفٍ، وذكي وطيب.

أخذ يتحدَّث معي في دردشةٍ عامة لطيفة، سائلًا إياي عن هذا وذاك: ما رأي أعضاءُ السيمينار في المحاكمة؟ ما الذي كان ينوي أستاذنا فعله مع سجل المحاكمة؟ وفي أيِّ فصلٍ دراسيٍّ كنا، وفي أيِّ فصلٍ كنتُ أنا؟ ولماذا درستُ القانون؟ ومتى سأبدأ امتحاناتي؟ وأخبرني بأن أسجل للامتحانات في الموعد المحدد.

أجبتُ كل أسئلته، ثم استمعتُ إليه قليلًا، وهو يتحدَّث عن دراسته، وعن امتحاناتهِ. قام بفعل كلِّ شيءٍ على نحوٍ صحيح. أخذ الفصول الصحيحة والسيمينارات في الوقت الصحيح، ونجح في امتحاناته النهائية بالدرجةِ الصحيحة للنجاح، وأنه أحبَّ أن يكون محاميًا وقاضيًا، وأنَّه لو توجب عليه أن يعيد الأمر برمتِّه مرةً أخرى، فإنه سيقوم بفعل ما قام به بالطريقة نفسها.

النافذة كانت مفتوحة، وفي ساحةِ انتظار السيارات، كانت السيارات تغلق والمحركات تدور. استمعتُ إلى السيارات، حتى ابتلعت ضوضاءها حركة المرور، ثم جاء الأولاد للعب والصراخ في ساحةِ انتظار السيارات الخاوية، وأحيانًا كان يتناهى إلى مسامعي صوتٌ واضحٌ تمامًا: اسم، أو سباب، أو نداء.

وقف القاضي، ثم ودَّعني، وأخبرني بأن بوسعي أن آت مرةً أخرى لو كان عندي أي أسئلةٍ أخرى، أو لو أردتُ نصيحةً في دراستي، وأنه يودُّ أن يعرف تقييم، وتحليل مجموعتنا للمحاكمة.

مشيتُ عبر ساحة انتظار السيارات الخاوية. أحدُ الأولاد الكبار أخبرني كيف أمشي إلى محطة القطارات، فلقد غادرت السيارة، التي أتينا بها بعد الجلسةِ مباشرةً، وكان عليَّ أن آخذ القطار. كان قطارُ ساعةُ الذروةِ البطيء، وكان يتوقف في كلِّ محطةٍ، ناسٌ تنزل وناسٌ تصعد. جلست بقرب النافذة محاطًا بأوجه الركاب المتبدلة، المحادثات، الروائح. بالخارج كانت تمرُ عليَّ البيوت والطرق، والسيارات، والأشجار، والجبال البعيدة، والقلاع، والمحاجر. استوعبتُ كلَّ ذلك بداخلي، ولم أشعر بشيء، ولم أعد منزعجًا من كون هانا تركتني، خدعتني، واستغلتني، وأنني ما عاد يتوجب عليَّ التدخل في أمرها، وشعرت بالخدر، الذي تابعتُ به أهوال المحاكمة، وهو يحيطُ بكلِّ مشاعر وأفكار الأسابيع القليلةِ السابقة. سيكون من المبالغة القول إنني كنتُ سعيدًا بهذا، لكنني شعرتُ بأنه الصواب، فلقد سمح لي بالعودة، واستكمال حياتي اليومية.

17

تم تسليم الأحكام في نهاية شهر يونيو، وحُكم على هانا بالسجن مدى الحياة، وحكم على الآخرين بمُددٍ متفاوتة في الحبس.

قاعة المحكمة كانت مليئة، كما كانت في بداية المحاكمة. أشخاصٌ من السلك القضائي، طلبةٌ من جامعتي، ومن جامعةٍ محليَّةٍ أخرى، فصلٌ من طلبةِ المدارس، صحافيون محليون وأجانب، والأشخاص الذين دائمًا ما يحضرون إلى المحاكم. كانت القاعة صاخبة. في البداية لم يلحظ أحد إحضار المدَّعى عليهن إلى القاعة، لكن بعد ذلك سكت المفتشون، وأول من سكت عن الكلام كانوا هؤلاء الجالسين في المقدمة بجوار المدَّعى عليهن، فقد لكزوا من يجاورونهم، واستداروا للذين يجلسون خلفهم، ثم همسوا "انظروا"، والذين نظروا سكتوا أيضًا، ولكزوا من يجاورونهم واستداروا لمن يجلسون وراءهم، وهمسوا أيضًا "انظروا!"، حتى صارت في النهاية قاعةُ المحكمة صامتة.

لا أعرف إن كانت هانا تعرفُ كيف كانت تبدو، أو أنها ربما أرادت أن تبدو هكذا. كانت ترتدي بذلةً سوداء، وبلوزةً بيضاء، وكانت قصة البذلة، وربطة العنق، التي تدلت على البلوزة جعلتها تبدو كما لو أنها ترتدي زيًا رسميًا. لم أرَ أبدًا الزي، الذي كانت ترتديه النسوة، التي كانت تعمل في فافن اس اس، لكنني أعتقد، وكل الحاضرين اعتقدوا بأننا نرى أمامنا ذلك الزي والمرأة، التي كانت تعمل

في فافن اس اس، وهى ترتديه، وكلُّ الجرائم، التي اتهمت هانا بارتكابها.

ثم بدأ المفتشون يهمسون فيما بينهم مرةً أخرى. الكثير كانوا غاضبين على نحو مسموع. شعروا بأن هانا كانت تستخفُ بالمحاكمة، وبالحكم، وبهم أنفسهم، وبالذين أتوا إلى سماع منطوق الحكم، ثم صاروا أكثر صخبًا، وبعضٌ منهم بدأ يهتف بما يظنوه في هانا، لكن بعد ذلك دخلت هيئة المحكمة القاعة، وبعد نظرةٍ مغتاظة على هانا، أعلن القاضي الحكم. استمعت إليه هانا، وهى واقفةٌ، منتصبةَ الظهر، وبلا أي مشاعرٍ على الإطلاق، ثم جلست في أثناء قراءة أسباب الحكم، ولم أنزع عيني عن رأسها وعنقها.

استغرقت قراءة الحكم عدة ساعات، وعندما انتهت المحكمة، واقتيد المدَّعى عليهنَّ للخارج، انتظرتُ أن أرى إذا ما كانت هانا ستنظرُ إليّ. كنتُ أجلسُ في المكان نفسه، الذي أجلسُ فيه دائمًا، لكنَّها تطلَّعت أمامها، وخلال كلِّ شيء. نظرةً معتزةً بنفسها، مجروحة، وضائعة، ومتعبة بكل تأكيد. نظرة لم ترغب في رؤية أي شيء، ولا أحد.

الجزء الثالث

1

قضيت الصيف، بعد المحاكمة، في غرفة القراءة بمكتبة الجامعة. أصل عندما تفتح الغرفة، وأغادر عندما تغلق، وفي العطلات الأسبوعية كنت أدرس في البيت. كنت أدرس دون انقطاع، وباستغراقٍ شديد كي تظل المشاعر والأفكار، التي أماتتها المحاكمة ميتة. تحاشيت أن أحتك بأحد. وانتقلت من البيت، واستأجرت غرفةً، ورفضت نهائيًا التواصل مع الذين أعرفهم بعض الشيء، وكانوا يتحدثون إليّ في غرفة القراءة، أو في زياراتي العرضية للسينما.

في الفصل الدراسي الشتوي كنت على المنوال ذاته، إلا أنني ذات مرةٍ سُئلتُ إذا ما كنت أود أن أقضي عطلة الكريسماس مع مجموعةٍ من الطلبة في التزلج على الجليد، وفي اندهاش قبلت.

لم أكن متزلجًا جيدًا، لكنني كنت أحب التزلج. كنت سريعًا، وجاريت الجيدين منهم، وأحيانا وأنا على منحدرات ثلجية تفوق قدراتي، كنت أخاطر بالسقوط، أو أن تتكسر عظامي. كنت أفعل ذلك بإدراكٍ. المخاطرة الأخرى، التي خضتها، واستسلمت لها، مخاطرةٌ لم تكن في حسباني.

لم أكن أشعر بالبرد أبدًا، وفي الوقت، الذي كان الآخرون يتزلجون، وهم يرتدون ستراتٍ وجاكيتات، كنت أتزلج، وأنا أرتدي تي شيرت. هزَّ الآخرون رؤوسهم ومازحوني بخصوص ذلك، إلا أنني لم آخذ مخاوفهم على محمل الجد، فببساطة لم أكن أشعر بالبرد، عندما

بدأت أسعل ألقيت باللائمةِ على السجائر النمساوية، وعندما بدأت أشعر بالحمى استمتعتُ بذلك الشعور. شعرتُ بالضعف وبالخفة في الوقت ذاته، وأن كلَّ حواسي مكتومة وهشة ومحشوة على نحوٍ لطيف. كنت طافيًا.

بعد ذلك تدهور الحال مع ارتفاع حرارتي، وأُخذتُ إلى المستشفى، وعند مغادرتي للمستشفى، كان الخدر راح. كل الأسئلة والمخاوف، والاتهامات ولوم الذات، وكل الرعب والألم، الذي انبثق خلال المحاكمة ومات، عاد على الفور مرةً أخرى، عاد بشكلٍ دائم. لا أعرف ما هو تشخيص الأطباء عندما لا يشعر شخصٌ ما بالبرد، على الرغم من أنه يجب أن يشعر بالبرد. تشخيصي أنا هو أن الخدر، الذي غمر جسدي من قبل كان يتخلى عني قبل أن أتخلى عنه.

عندما انتهيت من دراستي، وبدأت تدريبي كان ذلك في الصيف الذي اندلعت فيه الحركات الطلابية الثورية. كنت مهتمًا بالتاريخ وعلم الاجتماع، وبينما كنت أعمل كاتبًا مع أحد القضاة كنت لا أزال أتردد على الجامعة بشكلٍ كافٍ يسمح لي بمعرفة ما يدور هناك. معرفة ما يدور لم تكن تعني المشاركة في الأمر، فالجامعة وإصلاح الجامعة لم يكونا أكثر اهتمامًا بالنسبة لي من مقاتلي الفيتكونج والأمريكيين، أما فيما يخص الموضوع الثاني والحقيقي بالنسبة للحركة الطلابية، وهو الاشتباك مع الماضي النازي، شعرت بأني بعيد عن بقية الطلبة، الذين لم يكن بداخلي رغبة في الحوار والتظاهر معهم.

أحيانًا أعتقد بأن التعامل مع الماضي النازي لم يكن سبب صراع الأجيال، الذي حرّك الحركة الطلابية، لكنه لم يكن إلا مجرد شكلٍ له. التوقعات الأبوية، التي يجب على كل جيل أن يخلص نفسه منها أبطلتها حقيقة أن هؤلاء الآباء فشلوا في عمل شيءٍ حيال حكم الريخ الثالث، أو بعد انتهائه. كيف بوسع هؤلاء، الذين ارتكبوا جرائم النازية، أو شاهدوها تحدث، أو أشاحوا بوجههم عنها عند حدوثها، أو تسامحوا مع المجرمين ممن بينهم بعد عام 1945 أو حتى قبلوها، كيف بمقدورهم أن يكون لديهم شيء ليقولوه لأبنائهم؟ لكن على الجانب الآخر كان الماضي النازي يمثل قضيةً حتى بالنسبة للأبناء، الذين لم يستطيعوا اتهام آبائهم بأي شيءٍ، أو لم يرغبوا في ذلك. بالنسبة لهم، الاشتباك مع الماضي النازي لم يكن مجرد شكلٍ من أشكال صراع الأجيال، إنما كان القضية نفسها.

وأيا كانت الشرعية، التي قد تكون أو لا تكون في مفهوم الذنب الجماعي، أخلاقية وقانونية، فإنها كانت بالنسبة لجيلي من الطلبة واقعًا معاشا، ولا ينطبق ذلك فقط على ما حدث في ظل حكم الريخ الثالث، لكن حقيقة أن شواهد قبور اليهود شوِّهت بإشارة الصليب المعقوف، وأن كثيرًا من النازيين القدامى شغلوا وظائف في المحاكم، والإدارات، والجامعات، وأن الجمهورية الفيدرالية لم تعترف بدولةِ إسرائيل لسنواتٍ عديدة، وأن الهجرة والمقاومة صارت مجرد عاداتٍ هي في كثير من الأحيان ليست أكثر من حياة امتثال - كل هذا ملأنا بالخزي، حتى، وإن كان بوسعنا أن نشير إلى الأطراف المذنبة. الإشارة إلى الأطراف المذنبة لم تخلصنا من الخزي، لكنها غلبت معاناتنا، التي

مررنا بها بسببه. لقد حوّلت المعاناة السلبية للخزي إلى طاقة ونشاط، وعداء، فالاشتباك مع ذنب الآباء استلزمه قدرٌ كبيرٌ من الطاقة.

لم يكن عندي أحد لأشير إليه. ليس والداي بالتأكيد، لأنني لم يكن لدي شيئًا لأتهمهما به، والحماسة التي انتابتني من أجل كشف الحقيقة، التي أدانت بها والدي، لما كنت عضوًا بسيمينار معسكرات الاعتقال، بالخزي، قد مرَّت، وجعلتني أخجل من نفسي، لكن ما ارتكبه أناسٌ آخرون في بيئتي الاجتماعية، وجرمهم، كان على كلِّ الأحوال أقل سوءا بكثير مما ارتكبته هانا. كان عليَّ أن أشير إلى هانا، لكن الإصبع الذي أشرتُ به إليها انقلب إليّ، فلقد أحببتها. لم أحبها فقط، بل اخترتها. حاولت أن أقول لنفسي إنني لم أكن أعرف شيئًا عما اقترفته عندما اخترتها. حاولت أن أتحدث لنفسي بالبراءة نفسها، التي يحبُّ بها الأبناء آباءهم، لكن حب آبائنا هو الحبُّ الوحيد، الذي لسنا مسؤولين عنه.

ربما نحن مسؤولون حتى عن الحب، الذي نشعر به حيال آبائنا. حسدت الطلبة الآخرين في ذلك الوقت، الذين انفصلوا عن آبائهم، وبذلك انفصلوا كليًّا عن جيلٍ كاملٍ من المجرمين، والبصاصين، والعُمي بإرادتهم، وملتمسي الأعذار، ومتقبلي الأمر، ربما بذلك لم يتغلبوا على الخزي، لكنهم على الأقل تغلبوا على معاناتهم من الخزي، لكن ما الذي أثار مشاعر التبجح وصلاح الذات، التي كنتُ أصادفها بين هؤلاء الطلبة؟ كيف بمقدور واحدٍ يشعر بالذنب والخزي، وفي ذلك الوقت أن يتباهى بصلاحه الذاتي؟ هل كان انفصالهم أو نأيهم

بأنفسهم عن آبائهم مجرد طنطنة: أصواتٌ وضجيجٌ من المفترض أنها تواري حقيقة أن حبهم لآبائهم جعلهم متورطين في الجرائم معهم؟

هذه الأفكار لم تأتِ إليَّ إلا لاحقًا، ولم تشعرني بالراحة حتى فيما بعد. كيف يكون مريحًا ذلك الألم، الذي خضته لأن حبي لهانا كان، بطريقةٍ ما، قدرُ جيلي، قدرٌ ألماني، وأنه كان بالنسبة لي فقط أكثر صعوبةً من أن أتحاشاه، وأكثر صعوبةً لي من أن أتدبر أمره أكثر من الباقين. على كل حال، كان من الجيد لي في ذلك الوقت أن أكون قادرًا على أن أحسب أنني كنت جزءًا من جيلي.

2

تزوجت أثناء عملي في المحكمة. جيرترود وأنا التقينا يوم التزلج على الجليد، وعندما غادر الباقون في نهايةِ العطلة، بقيت إلى أن غادرت المستشفى، وأعادتني إلى البيت. هى الأخرى كانت تدرس القانون، درسنا معًا، ونجحنا معًا، وبدأنا بالعمل في المحكمة معًا، وتزوّجنا عندما حمِلت جيرترود.

لم أحكِ لها عن هانا. فكرتُ: من يريد أن يعرف عن علاقات شريكه السابقة إن كان هو أو هى لم يفوا بوعودهم؟ جيرترود كانت ذكية، كُفؤا، ومخلصة، ولو أن حياتنا كان تشتمل على مزرعة يعمل بها كثيرٌ من المزارعين والمزارعات، ولدينا كثيرٌ من الأطفال، وكثير من العمل، بحيث لا يصبح هناك وقتٌ لبعضنا البعض، لكانت حياتنا مرضيةً وسعيدة، لكن حياتنا كانت عبارة عن شقة من ثلاث غرفٍ في بنايةٍ حديثة على تخوم المدينة، وابنتنا جوليا، وعمل جيرترود وعملي كموظفين قانونيين. لم أتمكن أبدًا من الكف عن عقد مقارنة بين طريقة جيرترود وطريقة هانا، ومرة تلو المرة، كنت أنا وجيرترود نتمسك ببعضنا البعض، كنت أشعر بأن ثمة شيءٍ خطأ، أنها كانت مخطئة، وأنها كانت تتحرك بشكلٍ خطأ، وتشعر بشكلٍ خطأ، وتشم بطريقةٍ خطأ وتتذوق على نحوٍ خاطئ. اعتقدت بأنني سأتغلبُ على الأمر، وتمنيت أن يغادرني هذا الحال. أردتُ أن أتحرر من هانا، لكنني لم أتغلب على شعوري بأن هناك ثمة شيءٍ خاطئ. انفصلنا عندما

كانت جوليا في الخامسة من عمرها. لم يعد بوسع أحدٍ منا المحافظة على سير الأمور، انفصلنا دون مرارةٍ وحافظنا على ولائنا لبعضنا البعض. عذبني أننا حرمنا جوليا من شعور الدفء والأمان، الذي كانت تتوق إليه بشكلٍ واضح. عندما كنت أنا وجيرترود منفتحين ودافئين مع بعضنا البعض، كانت جوليا تسبح في ذلك مثل سمكة في الماء. كانت في مجالها الملائم. عندما كانت تستشعر التوتر بيننا، كانت تجري إلى كل منا لتؤكد لنا أننا رائعين، وأنها تحبنا. كانت تتوق لأخٍ صغير، وربما كانت ستصبح سعيدةً مع أشقاء أكثر. لوقتٍ طويل، لم تستوعب ما الذي كان يعنيه الطلاق، عندما كنت آتي لزيارتها، كانت تريدني أن أظلّ، وعندما كانت تأتي لزيارتي كانت تريدُ أن تأتي جيرترود أيضًا، وعند ذهابي كانت تشاهدني من النافذة فكان عليَّ أن أدخل السيارة تحت وطأةِ نظرتها الحزينة، وكان ذلك يحطم قلبي، وكان ينتابني شعورٌ بأن ما كنا نحرمها منه لم يكن فقط أمنيتها، بل حقها. لقد غششناها في حقوقها بانفصالنا، وحقيقة أننا فعلنا ذلك معًا لم يقسم الذنب بيننا بالتساوي.

حاولت أن أقترب في علاقاتي اللاحقة بشكلٍ أفضل، أن أخوض فيها على نحوٍ أكثر عمقًا، واعترفت لنفسي بأن امرأتي لا بدَّ، وأن تتحرك وتشعر مثل هانا تقريبًا، وأن تكون رائحتها ومذاقها أقرب ما يكونا لها من أجل أن تكون الأشياء على ما يرام بيننا. أخبرتهنَّ عن هانا، وأخبرتهنَّ عن نفسي أكثر مما أخبرت جيرترود، كي يتسنى لهنَّ إدراك الأمر لربما صادفهن شيءٌ مقلقٌ في سلوكي أو مزاجي، إلا أن النساء لم تشأنَّ أن تستمعن كثيرًا. أذكر هيلين، ناقدةٌ أدبية أمريكية

راحت تربت على ظهري في سكونٍ ولطف، بينما كنتُ أتحدَّث، واستمرت في التربيت عليَّ بسكونٍ ولطف حتى بعد أن توقفت عن الحديث. جيسينا، محللةٌ نفسية، اعتقدت بأنني بحاجةٍ للعمل على علاقتي مع أمي. أوَ لم يدهشني أن أمي بالكاد ظهرت في حكايتي؟ هيلكي، طبيبة أسنانٍ ظلت تسألني عن الوقت السابق للقائنا، لكنها سرعان ما كانت تنسى في الحال كل ما كنتُ أقوله لها، لذا توقفت عن الحديث عن الأمر. لم يكن هناك حاجةً للحديث، لأن حقيقة ما يقوله الواحد تكمن فيما يفعله.

3

بينما كنت أخوض امتحاني الحكومي الثاني، توفي الأستاذ، الذي أجرى لنا سيمينار معسكرات الاعتقال. صادفت جيرترود النعي في الجريدة. كانت الجنازة في مقابر الجبل. هل كنت أريد الذهاب؟

لم أكن أريد. كانت مراسم الدفن يوم الخميس بعد الظهر، وكان عندي في صباح يوم الخميس والثلاثاء امتحاناتٍ تحليلية، وكذلك، لم تكن علاقتي بالأستاذ قريبةً بشكل خاص، ولم أكن أحبُّ الجنازات، ولم أرغب في تذكر المحاكمة.

لكن فات الأوان بالفعل. فالذكريات استيقظت، وعند خروجي من الامتحان يوم الخميس، كان الأمر كما لو أن لدي موعدًا مع الماضي لا يمكنني تفويته، وفعلت شيئًا لم أكن أبدًا أفعله قبل ذلك: لقد استقليتِ الترام، وهذا في حدٍّ ذاته كان لقاءً مع الماضي، مثل العودةِ إلى مكانٍ كان مألوفًا من قبل، لكن الترام منظره تغيَّر، عندما كانت هانا تعمل في شركة الترام، كان هناك ترامات طويلة تتكون من عربتين أو ثلاث عرباتٍ، وأرصفة المحطات من المقدمة والمؤخرة، تمتد بمحاذاة درج الصعود بحيث يمكنك القفز إلى داخل الترام عندما مغادرة الترام للمحطة، وسلكٌ يمر عبر العربات كان يستخدمه محصل التذاكر لإطلاق الإشارةِ بالإنطلاق. في الصيف كانت هناك ترامات لها أرصفةُ محطاتٍ مفتوحة، وكان محصل التذاكر يبيع، ويخرم التذاكر، ويراجعها وينادي على المحطات، ويطلق إشارات التوقف والانطلاق، ويجعل عينيه

على الأطفال، الذين يخوضون طريقهم إلى رصيف المحطة، ويتشاجرون مع الركاب، الذين يقفزون نزولًا أو صعودًا، ويرفضون ركوب المزيد من الركاب لو كانت العربة ممتلئة. كان هناك محصلو تذاكر مرحين، وأذكياء، وجادين، وعابسين، وفظّين، وكان طبع ومزاج محصل التذاكر غالبًا ما يحدد الجو العام في العربة، ويا لغبائي أنني بعد المفاجأة، التي فشلت عند ركوبي إلى سكوتنبرغ، كنتُ أخشي جدًا أن أراقب هانا لكي أرى كيف كانت، وهي محصلة تذاكر.

صعدت إلى الترام، الذي يعمل بلا محصلي تذاكر، واستقليته حتى مقابر الجبل. كان يومًا خريفيًا باردًا ذا سماءٍ مضببة دون سحب وشمسٌ صفراء ما عادت تصدر حرارةً، من ذلك النوع، الذي يمكنك أن تنظر إليه مباشرةً دون أن تؤلمك عينيك، كان عليَّ أن أبحث لفترةٍ، قبل أن أجد القبر، حيث كانت تقام الجنازة. مشيتُ تحت الأشجار الطويلة الخالية من الأوراق، بين شواهد القبور القديمة يصادفني أحيانًا بستاني المقابر، أو امرأةً عجوز معها دورقٌ للري، ومقصٌ لجز أوراق الأشجار. كان المكان ساكنًا، ومن بعيد كان بمقدوري أن أستمع للترانيم، وهي تُغنى على قبر الأستاذ.

توقفت بعيدًا، ورحت أتفحص مجموعة المعزين. بعضٌ منهم كانوا غريبي الأطوار، ومهمشين بشكلٍ واضح، وفي كلمات تأبين الأستاذ كانت هناك تلميحات بأنه نفسه انسحب من ضغوط المجتمع، وفقد التواصل معه، وظلَّ وحيدًا، وهكذا صار هو نفسه شخصًا غريب الأطوار.

ميَّزت عضوًا سابقًا كان معنا في سيمينار معسكراتِ الاعتقال. كان أنهى امتحاناته قبلي، وأصبح الآن محاميا متمرسا، وبعد ذلك فتح بارًا، كان يرتدي معطفًا أحمر طويلًا، ثم اقترب للتحدث معي عند انتهاء كلِّ شيء، وأنا أشق طريقي إلى بوابةِ المقابر. "كنا في السيمينار نفسه— ألا تذكرني؟"

"نعم"، وتصافحنا.

"كنتُ دائمًا في المحاكمة في أيام الأربعاء، وأحيانًا كنت أوصلك إلى هناك."، ضحك "كنتَ هناك كلَّ يوم، كلَّ يوم وكلَّ أسبوع. هل تستطيع الآن أن تخبرني لماذا؟"، ونظر إليَّ على نحوٍ حسن الطوية، وجاهز للتوثب، وتذكرت أنني لاحظت هذه النظرة حتى في أثناء السيمينار.

"كنتُ مهتمًا بالمحاكمة".

"كنتَ مهتمًا بالمحاكمة؟"، ثم ضحك مجددًا. "المحاكمة، أم المدَّعى عليها، التي كنت تتطلع إليها دائمًا؟ الوحيدة، التي كانت جميلةُ المنظر بشكل معقول. لقد اعتدنا جميعًا التساؤل ما الذي كان بينك وبينها، لكن أحدًا منا لم يجرؤ على سؤالك. كنا حساسين بشكلٍ مفرط، ونراعي مشاعر الآخرين في ذلك الوقت. هل تذكر..." وراح يتذكر عضوًا آخرًا من أعضاء السيمينار، كان يتأتئ أو يلثغ، ويتحدثُ باستمرار، وأغلب كلامه ترهات، وكنا نستمع إليه كأن كلماته من ذهب، واستمر في الحديث عن طلبةٍ آخرين، كيف كانوا في ذلك الوقت، وما الذي يفعلونه الآن. تحدَّث وتحدَّث، لكنني كنت

أعرف بأنه سيعود إليَّ في النهاية ليسألني "إذن، ما الذي كان بينك وبين المدّعى عليها؟"، لم أعرف بماذا أجيب، كيف أخون، وأعترف وأتحاشى.

بعدئذ صرنا على مشارف بوابة المقابر، وسألني. في ذلك الوقت كان أحد الترامات يغادر المحطة فهتفت به، وداعًا، وجريت مسرعًا كأنني بوسعي أن أقفز إلى الدرج، جريت بمحاذاة الترام، وأنا أطرق براحة يدي على الباب، وحدَّث شيءٌ لم أكن أصدقه، ولم آمل فيه. توقف الترام، وانفتح الباب، وصعدت إليه.

4

بعد اجتيازي امتحان الحكومة، كان عليّ أن أختار مهنةً في المجال القانوني. منحت نفسي بعض الوقت، أما جيرترود، التي بدأت في الحال عملها في السلطة القضائية، صارت مشغولة طيلة الوقت، وكنا سعداء، فقد كان بإمكاني أن أظل بالبيت، وأعتني بجوليا، وما إن تجاوزت جيرترود صعوبات البداية كلها، وصارت جوليا في روضة الأطفال، كان عليّ أن أتخذ قرارًا.

مررتُ بوقت عصيب بسبب ذلك. لم أجد نفسي في أي الأدوار، التي رأيت المحامين يلعبونها في محاكمة هانا. بدت النيابة لي تبسيط قبيح للدفاع، والقضاء كان أكثر التبسيطات المفرطة قبحًا في كل ذلك. كذلك لم أتمكن من رؤية نفسي مسؤولًا إداريًا، فلقد عملت في مكتبٍ حكومي خلال فترة تدريبي، ووجدت أن حجراته، وممراته وروائحه وموظفيه كئيبين، عقيمين ومملين.

لم يترك ذلك لي الكثير من المجالات القانونية، لا أعرف ما كنت سأفعل لو أنَّ أستاذ مادة التاريخ القانوني لم يعرض عليَّ وظيفة باحثٍ. جيرترود قالت "إن ذلك كان مراوغةً، وهروبًا من تحديات ومسؤوليات الحياة"، ولقد كانت على حق. لقد هربت وارتحت، وكان بمقدوري فعل ذلك. على كلٍ، لم يكن ذلك للأبد، قلت لها ولنفسي، فقد كنت صغيرًا بشكلٍ كافٍ يجعلني أدخل أي مجال قوي من مجالات المهن القانونية، بعد بضع سنواتٍ من العمل في التاريخ

القانوني، إلا أن ذلك استمر للأبد، أول هروبٍ تبعه هروبٌ ثانٍ، عندما انتقلت من الجامعة إلى معهد أبحاثٍ، ساعيًا ومجدًا لإيجاد ركنٍ يكون بوسعي فيه مواصلة اهتمامي بالتاريخ القانوني، الذي لم أحتج فيه إلى أحد، ولم أزعج فيه أحد.

الآن ينطوي الهرب، ليس على الفرار فقط، بل على الوصول إلى مكانٍ ما، والماضي، الذي وصلت إليه كمؤرخٍ قانوني لم يكن أقل حياةً من الحاضر. أيضًا ليس صحيحًا، كما قد يظن الدخلاء، أن بوسع الواحد أن يلاحظ غنى الحياة فقط في الماضي، بينما بوسع الواحد المشاركة في الحاضر. إن عمل التاريخ يعني بناء جسور بين الماضي والحاضر، وملاحظة كلتا الضفتين للنهر، والمشاركة بفاعلية في كلا الجانبين. أحدُ مجالات بحثي كان القانون في ظلِّ حكم الريخ الثالث، وهنا يبدو واضحًا تحديدًا كيف يأتي الماضي والحاضر معًا في واقعٍ واحد. هنا، الهرب ليس انشغالًا تامًا بالماضي، بل تركيزًا محددًا على الحاضر والمستقبل ويغفلُ الطرف عن إرث الماضي، الذي يسِمُنا بالعار، ومعه يجبُ علينا أن نعيش.

بقولي هذا، لا أقصد أن أخفيّ قدر استمتاعي بالقفز في مداراتٍ مختلفةٍ من الماضي لم تكن بالضرورةِ تتعلق بالحاضر. شعرت بذلك أول مرة عندما عملت على مجموعة قوانين ومسودات عصر التنوير. كانت ترتكز على اعتقاد بأن النظام الجيد هو أمرٌ جوهري للعالم، وبذلك يمكن للعالم أن ينتظم بشكلٍ جيد. رؤية كيف كانت البنود القانونية توضع فقرةً فقرة بناءً على هذا المعتقد، وكأنها بمثابة حرسٍ

رسمي لهذا النظام الجيد، وتفعيلها لقوانين تكافح للجمال بواسطة جمالها الشديد لأجل الحق، جعلتني سعيدًا، ولوقتٍ طويل اعتقدت بأن هناك تقدمًا في تاريخ القانون، تطورٌ ناحية مزيدٍ من الجمال والحق، والعقلانية والإنسانية، على الرغم من الإخفاقات والتراجعات الفظيعة، وبمجرد أن اتضح لي أن هذا الاعتقاد كان خيالًا، شرعت في اللعب مع صورةٍ مختلفةٍ لمجرى التاريخ القانوني. في هذه الصورة كان ما يزال ثمة غرضٍ ما، لكن الهدف، الذي حققته في النهاية، بعد عددٍ لا يحصى من التشويش والحيرة والوهم، إنها البداية، ومنطلقها الأصلي، التي ما إن يصل إليها الواحد، حتى يتحتم عليه الانطلاق منها ثانيةً.

في ذلك الوقت أعدتُ قراءة الأوديسا، التي كنت قرأتها قبل ذلك في المدرسة، وأتذكرها على أنها قصةٌ عن العودةِ إلى الديار، لكنها ليست قصةً عن العودةِ للديار. كيف يمكن للإغريق، الذين عرفوا بأن الواحد لا يخوض أبدًا ذات النهر مرتين، أن يصدقوا في العودة للديار؟ أوديسيوس لم يعد لوطنه ليظلَّ فيه، لكن لينطلق منه ثانيةً. الأوديسا هي قصة حركةٍ ذات غايةٍ وبلا غاية، ناجحةٌ، وعقيمة، وماذا يكون تاريخ القانون غير ذلك؟

5

بدأت بالأوديسا. قرأتها بعد انفصالنا أنا وجيرترود. ليالٍ كثيرة لم أتمكن من النوم فيها أكثر من بضع ساعاتٍ، كنت أتمدد مستيقظًا، وعندما أشعل الضوء، وألتقط كتابًا، تغمض عيناي، وعندما أضع الكتاب جانبًا، وأطفئ الضوء أستيقظُ مجددًا، لذا قرأت بصوتٍ عالٍ لا تغمض عيناي، ولأن في كلّ أفكاري المضطربة، ونصف المستيقظة، التي كانت تدور في حلقاتٍ مزعجة من الذكريات والأحلام حول زواجي وابنتي وحياتي، كانت هانا دائمًا تفرض نفسها، فقرأت لهانا. قرأت لهانا على شرائط الكاسيت.

استغرق الأمرُ عدة شهورٍ قبل إرسال الشرائط. في البداية لم أشأ أن أرسل قليلًا منها، لذا انتظرتُ، حتى أكملت تسجيل كلَّ الأوديسا، بعد ذلك بدأت في التساؤل إذا كانت هانا ستجد الأوديسا مثيرةً للاهتمام فعلًا، لذا سجلتُ ما قرأته بعد الأوديسا، قصصٌ لشنتزلر وتشيكوف، بعد ذلك ماطلت في الاتصال بالمحكمة، التي حكمت على هانا لمعرفةِ أين كانت تقضي عقوبتها. في النهاية جمعتُ كلَّ شيءٍ معًا، عنوان هانا في سجن بالقرب من المدينةِ، التي حوكمت فيها، مشغل شرائط كاسيت، وشرائط الكاسيت، مرقمة من تشيكوف إلى شنتزلر إلى هوميروس، وهكذا أرسلتُ في النهاية العلبة مع الجهاز والشرائط.

مؤخرًا عثرتُ على الدفتر، الذي دوَّنت فيه ما سجلته لهانا على مدار الأعوام. أول اثني عشر عنوانًا سُجلوا جميعًا بشكلٍ واضح في الوقت نفسه، في البداية قرأت على الأرجح فقط، ثم أدركت، بعد ذلك أنني لو لم أدوِّن الملاحظات، فلن أتذكر ما قد سجلته بالفعل. بجوار العناوين المتلاحقة يوجد أحيانًا تاريخ، وأحيانًا لا يوجد، لكن حتى بدون تواريخ كنتُ أعرفُ بأنني أرسلت لهانا أولَ علبةٍ في السنة الثامنة في سجنها، والأخيرة كانت في السنة الثامنة عشر، وفي السنة الثامنة عشر، قُبِلَ طلبها في التماس العفو.

بشكل عام قرأت لهانا الأشياء التي أردتُ أن أقرأها بنفسي في أيِّ لحظة. مع الأوديسا، وجدت في البداية كم كان صعبًا اجتياز قدرٍ كبيرٍ منها عند قراءتها بصوتٍ عالٍ كما هو الحال عند قراءتها في صمتٍ لنفسي، لكن ذلك تغيَّر، فعيبُ القراءة بصوتٍ عالٍ أنها تستغرقُ وقتًا أطول، لكنَّ الكتب المقروؤة بصوتٍ عالٍ أيضًا تظلُّ فترة أطول في ذاكرتي، حتى اليوم، أستطيع تذكر الأشياء فيها بشكلٍ واضحٍ تمامًا.

لكنني أيضًا قرأت الكتب، التي أعرفها من قبل وأحبها، لذا كان على هانا أن تسمع قدرًا كبيرًا من أعمال كيللر، وفونتانه، هاينه وموريكه. لوقتٍ طويلٍ لم أجرؤ على قراءة الشعر، لكنني في النهايةِ استمتعتُ به بالفعل، وتعلمت الكثير من القصائد، التي حفظتها عن ظهر قلب، وما زلت إلى اليوم أستطيع قولها.

إجمالًا، تشي العناوين في الدفتر عن ثقةٍ كبيرةٍ وراسخة في الثقافة البرجوازية. لا أذكر أبدًا أنني سألتُ نفسي إذا ما كان يجبُ عليَّ أن أتجاوز كافكا وفريش، وجونسون، وباخمان، ولنس، وأن أقرأ الأدب التجريبي، أدبٌ لم أكن أميِّز فيه القصة، أو كنتُ أحبُّ أيًا من الشخصيات. بالنسبة لي كان من الواضح أنَّ الأدب التجريبي كان يجربُ مع القارئ، وهانا لم تكن تحتاج لذلك، وكذلك أنا.

عندما بدأت أن أكتب بنفسي، كنت أقرأ لها هذه المقاطع بصوتٍ عالٍ أيضًا. كنتُ أنتظرُ حتى أُملي ما كتبته بخطِ يدِّي على أحدٍ، ثم أراجعُ النسخة المكتوبة بالآلة، وكان ينتابني شعورٌ بأنها الآن قد اكتملت. عندها كنت أقرأها بصوتٍ عالٍ، فكان بمقدوري أن أقول إذا كان الشعور مناسبًا أم لا، وإن كان غير مناسبٍ، كان بوسعي أن أراجعها، وأسجلُّ نسخةً جديدة فوق النسخة القديمة، لكنني لم أحبُّ فعل ذلك، لقد أردتُ أن تكون قراءتي متأججة. صارت هانا الحكم، الذي أستجمع أمامه كلَّ طاقاتي مرة أخرى، وكلُّ ابداعاتي، وكلُّ خيالاتي النقدية، بعد ذلك، يمكنني أن أرسل المخطوط إلى الناشر.

لم أترك لها رسالة شخصيةً على الشرائط، لم أسأل أبدًا عن أحوالها، ولم أخبرها أبدًا بأيِّ شيءٍ عن نفسي. كنت أقرأ العنوان، واسمُ المؤلف ثم النص. وعندما كان ينتهي النص، أنتظرُ للحظةٍ، وأغلقُ الكتاب، وأضغطُ زرِّ الإيقاف.

6

في السنة الرابعة لتواصلنا المساق بالكلمات والصامت، وصلتني رسالةٌ قصيرة. "يا ولد، القصة الأخيرة كانت لطيفةٌ بشكلٍ مميز. شكرًا لك. هانا."

كانت ورقةً مسطرة، منزوعةً من دفترٍ ومقطوعةٍ بخفة. الرسالةُ كانت أعلى الورقة يمينًا، وشغلت ثلاثةُ سطورٍ، وكُتبت بقلمٍ جافٍ أزرق مضطرب. كانت هانا ضغطت بشدة على القلم، فبرزت الحروف من الجهةِ الأخرى للورقة. كذلك كتبت العنوان بالقدر نفسه من القوة، وكانت بصمةُ يدها واضحة أعلى وأسفل نصفيّ الورقة، التي كانت مطويةً من المنتصف.

من اللمحةِ الأولى، قد يظنُّ الواحد أنه خطُ يدِّ طفلٍ، لكن ما هو غير متقنٍ وأهوجٍ في خطِّ الأطفالِ كان قويًا هنا. بوسعك أن ترى إصرار هانا في التغلب على الخطوط، وجعلها تتحول إلى حروف والحروف إلى كلمات. يدُّ الطفل ستجول هنا وهناك، ويجب عليها أن تكون مضبوطة. يدُّ هانا لم تشأ أن تحيد إلى أيِّ مكانٍ، وكان عليها أن تكون موجهة بقوة. الخطوط، التي شكلَّت الحروف بدأت مجددًا في كلِّ مرةٍ بضغطة من أعلى، وضغطة من أسفل وقبل المنحنيات والانثناءات. كلُّ حرفٍ كان انتصارًا بعد جهدٍ جهيد، وإن كان به ميلٌ أو انحراف، وغالبًا طول خاطئ أو عرضٌ خاطئ.

قرأت الرسالة وملأني الفرح والابتهاج "إنها تستطيع الكتابة!"، في هذه السنوات كنت قرأت كلَّ شيءٍ تقع عليه يدايّ، وله علاقةٌ بالأمية. كنت أعرف عن قلة الحيلة في الأنشطة اليومية، كالعثور على درب أو العثور على عنوان أو اختيار وجبةٍ في مطعم، وكيف أنَّ الأميين يلتزمون *بلهفةٍ بالأنماطِ الموصوفة، والأنظمةِ المألوفة، وعن مقدار الطاقةِ المبذولة لإخفاء عدم قدرتهم على القراءة والكتابة، وهى طاقةٌ ضائعة بالنسبة للحياة الواقعية. الأمية هى التبعية، وبعثورها على الشجاعة لتعلم القراءة والكتابة، تقدَّمت هانا من التبعيَّة إلى الاستقلال، وهى خطوةٌ ناحية التحرر.

بعد ذلك نظرتُ إلى خطِّ يدٍّ هانا، ورأيت مقدار الطاقةِ والكفاح، الذي استلزمته الكتابة منها. كنتُ فخورًا بها، وفي الوقت ذاته، كنتُ آسفًا من أجلها، آسفًا من أجل حياتها المتأخرة والفاشلة، ومن أجل تأخرات وإخفاقات الحياةِ بشكلٍ عام، وفكرت أنه لو فات الوقتُ المناسب، ورفض الواحد شيئًا ما أو رُفِض لوقتٍ طويل، فإن الوقت يكون متأخرًا جدًا، حتى وإن عولج الأمرُ في النهايةِ بطاقةٍ، وأُستقبل بفرحٍ، أو أنَّه ليس هناك ثمة شيءٍ "متأخرٍ جدًا"؟ كل ما هنالك فقط هى كلمة "متأخر"؟ وهل "متأخر"، أفضل دائمًا من "ليس أبدًا"؟ لا أعرف.

بعد الرسالة الأولى جاء فيضٌ من الرسائل. دائمًا كانت سطورٌ قليلة، رسالةُ شكرٍ، رسالةٌ تتمنى سماع المزيد من كاتبٍ معيَّن أو أن لا تسمع منه ثانيةً، تعليقًا عن كاتب أو قصيدة أو قصة أو شخصية في

رواية، ملاحظة عن السجن. "زهور الفورسيثيا أينعت بالفعل في الباحة"، أو "أحبُّ أن هذا الصيف كان به كثيرٌ من الرياح"، أو "من نافذتي يمكنني أن أرى الطيور تتجمعُ كي تطير إلى الجنوب"— دائمًا كانت رسائل هانا، التي تجعلني أنتبه لأول مرة إلى الفورسيثيا، ورياح الصيف أو تجمعات الطيور، وغالبًا ما تكون ملاحظاتها عن الأدب في محلِّها بشكلٍ مذهل. "شنتزلر ينبح، شتيفان تسفايغ كلبٌ ميت"، أو "كيللر يحتاج لامرأة"، أو "قصائد جوته أشبه بالمنمنمات في إطارٍ جميل"، أو "يجب على لنس أن يكتب على آلةٍ كاتبة"، ولأنها لم تكن تعرفُ شيئًا عن الكتَّاب، افترضت أنهم كانوا معاصرين، إلا إذا كان هناك شيءٌ ما يشير بشكلٍ واضح إلى استحالةِ ذلك. كنتُ مندهشًا كيف يمكنُ للأدب القديم أن يقرأ، كما لو أنه كان أدبًا معاصرًا. بالنسبة لأي شخصٍ يجهلُ التاريخ، من السهل رؤية الكثير من طرق الحياة في الأزمنة الأولى في بساطة كأنها طرق للحياة في بلادٍ أجنبية.

لم أكتب أبدًا إلى هانا، لكنني ظللت أقرأ لها، وعندما قضيت عامًا في أمريكا، أرسلت شرائط الكاسيت من هناك، فإذا كنت في عطلة أو مشغولًا بشغلٍ خاص، فقد كان يلزمني وقت أطول لإنهاء الشريط الثاني، لم أحدد أبدًا إيقاعًا معيَّنًا، لكن كنت أرسل الشرائط أحيانًا كلَّ أسبوعٍ أو كلَّ أسبوعين، وأحيانًا كلَّ ثلاثِ أو أربع أسابيع. لم أكن قلقًا أن تكون هانا في حاجة إلى شرائطي الآن، فلقد تعلمت أن تقرأ بنفسها، وصار بوسعها أن تقرأ أيضًا. القراءة بصوتٍ عالٍ كانت طريقتي للتحدُّث إليها، ومعها.

احتفظتُ بكلِّ رسائلها. تغيَّر خطُّ يدِّها. في الأول كانت تضغطُ على الحروف بنفس الميل والطول والعرض الصحيحين، وما إن تمكنت بذلك أصبحت أخف وأكثر ثقةً. لم يصبح خطها أبدًا منسابًا، لكنَّه وصل إلي حد ما لدرجة الجمالٍ الحادة، التي تميِّز كتابات العجائز، الذين لم يكتبوا كثيرًا في حياتهم.

7

في ذلك الوقت لم أفكر أبدًا في حقيقة أن هانا سيطلق سراحها يومًا ما، فتبادل الرسائل والكاسيتات كان طبيعيًا جدًا ومألوفًا، وهانا كانت قريبة وبعيدة بشكل مريح، لدرجةِ أنه كان بوسعيّ الاستمرار على هذا الوضع بلا أي تحديد. أعرف أن ذلك كان مريحًا وأنانيًا.

ثم جاء خطاب مسؤولة السجن.

لسنواتٍ أنت والسيدة شميتز كنتم تتراسلون مع بعضكم البعض، وهذه هى الصلة الوحيدة للسيدة شميتز مع العالم الخارجي، لذا أنا أتوجه إليك، رغم أنني لا أعرف مدى قرب العلاقة بينكما، وإذا ما كنت قريبًا أو صديقًا.

في العام القادم ستتقدم السيدة شميتز مجددًا بطلب لالتماسٍ العفو، وأتوقع أن لجنة السجناء ستقبل الطلب. حينئذ سيتم الإفراج عنها خلال فترةٍ وجيزة، بعد ثمانية عشر عامًا في السجن. بالطبع يمكننا أن نجد أو نحاول أن نجد لها شقةً وعملًا، وإن كان العمل سيكون صعبًا في سنها، رغم أنها في صحةٍ جيدة، وأنها أظهرت مهارةً جيدةً في قسم الخياطة التابع لنا، ولكن بدلًا من أن نعتني بها، سيكون من الأفضل لأقربائها وأصدقائها أن يقوموا بفعل ذلك، أن تعيش المسجونة المُحررة بجوارهم، أن يظلوا بصحبتها ودعمها. أنت لا تتخيل قدر الوحدة والعجز، التي يكون عليها الواحد في العالم الخارجي بعد ثمانية عشر عامًا في السجن.

السيدة شميتز يمكنها أن تعتني بنفسها جيدًا، وأن تتدبر أمورها. سيكفيها لو استطعت أن تجد لها شقةً صغيرة وعملا، وأن تزورها، وتدعوها إلى بيتك من فترةٍ لأخرى خلال الأسابيع والشهور الأولى، وأن تتأكد أنها تعرف البرامج، التي تقدمها التجمعات المحلية ووحداتِ تعليم الكبار، وجماعات الدعم الأسرى، إلخ.

ليس من السهل، بعد ثمانية عشر عامًا، المضي في المدينة لأول مرة، والذهاب للتسوق، والتعامل مع السلطات، والذهاب إلى المطعم. فعل ذلك مع شخصٍ آخر يساعد كثيرًا.

لقد لاحظت أنك لا تزور السيدة شميتز. لو زرتها، ما كنت كتبت إليك، بل كنت سأطلب أن أتحدث إليك خلال إحدى زياراتك. الآن يبدو أنه يتوجب عليك زيارتها قبل إطلاق سراحها. من فضلك تعال، وقابلني عند تلك الفرصة.

انتهى الخطاب بخالص التحيات، التي لا أعتقد بأنها تتعلق بي، بل تتعلق بحقيقة أن مسؤولة السجن كانت مخلصةً حيال الأمر. لقد سمعت بها، وأن مؤسستها كان لها اعتبارٌ كبير على نحوٍ غير عادي، وأن آراءها حيال أسئلة هيئة إصلاح السجون لها وزنها. لقد أعجبني خطابها.

لكنني لم أحب ما كنت مقبلًا عليه. بالطبع كان عليّ أن أبحث عن عملٍ وعن شقةٍ، ولقد فعلت. بعض الأصدقاء، الذين لم يستخدموا أو يؤجروا الشقة الملحقة ببيتهم وافقوا على تركها لهانا مقابل أجرةٍ بسيطة. الخياط اليوناني، الذي كنت أعدلُ عنده ثيابي من

فترةٍ إلى أخرى وافق على توظيف هانا، فشقيقته، التي كانت تدير معه محل الخياطة، أرادت أن تعود إلى اليونان، وقبل استخدام هانا بوقتٍ طويل، بحثت في الخدمات الاجتماعية والبرامج التعليمية، التي تديرها الكنائس والمؤسسات المدنية، لكنني ماطلت في زيارةِ هانا.

تحديدًا لأنها كانت قريبة بعيدة في الوقت نفسه على نحوٍ مريح، لم أرغب في زيارتها. انتابني شعورٌ أنها يمكن أن تكون فقط ما كانت عليه بالنسبة لي من على بعد. كنت أخشى أن عالم الرسائل وشرائط الكاسيت الصغير الخفيف الآمن كان مصطنعًا جدًا وهشًا جدًا لأن يتحمل قُربا حقيقيا. كيف يمكن أن نلتقي وجهًا لوجه دون أن يظهر كلُّ شيءٍ حدث بيننا على السطح؟

لذا فقد مرَّت السنة دون أن أذهب إلى السجن، ولوقتٍ طويل لم أسمع من مسؤولة السجن شيئًا، فالخطاب الذي وصفت فيه وضعُ البيت والعمل بالنسبة لهانا ذهب دون رد، ربما كانت تتوقع أنني سأتحدث معها عند زيارتي لهانا. لم يكن لديها وسيلة لمعرفة أنني لم أكن فقط أماطل في هذه الزيارة، بل إنني كنت أتحاشاها، لكن، في النهاية، جاء قرار العفو والافراج عن هانا، واتصلت بي مسؤولة السجن. هل يمكنني أن آتي الآن؟ فهانا كانت ستخرج في غضون أسبوعٍ.

8

ذهبت يوم الأحد التالي، وكانت تلك هى أول زيارةٍ لي إلى سجن. تم تفتيشي عند المدخل، وانفتحت وانغلقت عدةُ أبوابٍ على طول الطريق. لكن المبنى كان جديدًا ولامعًا، وفي الداخل كانت الأبواب مفتوحةً، سامحةً للنساء بالتحرك بحريةٍ، وفي نهاية ممرٍ كان هناك باب مفتوحًا للخارج، حيث توجد رقعةٌ خضراء بها كثيرٌ من الناس وأشجارٌ ومقاعد. أخذتُ أتلفتُ حولي، وأنا أبحث، فأشار الحارس، الذي أدخلني إلى مقعدٍ قريبٍ في ظلٍّ شجرة كستناء.

هانا؟ المرأة، التي كانت تجلسُ على المقعد كانت هانا؟ شعرٌ رمادي، وجهٌ به تجاعيدٌ عميقة عند الحواجب والخدود وحول الفم، وجسدٌ ثقيل. كانت ترتدي فستانًا لبني كان ضيقًا جدًا وملتصقًا بنهديها، وبطنها وأردافها. يداها كانتا قابعتين في حجرها وتمسكان بكتاب. لم تكن تقرأ فيه، ومن أعلى نظارتها، كانت تراقب امرأةً تلقي بفتاتِ الخبز لزوجٍ من العصافير، ثم أدركت أن ثمة أحدٍ يشاهدها، فأدارت وجهها إلي.

رأيت التوقع على وجهها، رأيته يشعُ فرحًا عندما تعرَّفت عليَّ، شاهدتُ عينيها تتفحصان وجهي وأنا أقترب، ورأيتهما تتفرسان وتفتشان، ثم بدتا حائرتين ومتألمتين، ورأيت الضوء يخبو من وجهها، عندما وصلت إليها، ابتسمت ابتسامةً ودودةً ومتعبة "لقد كبرت يا ولد". جلست بجوارها، وتناولت يدي.

في الماضي، أحببت بشكلٍ خاص رائحتها. دائمًا ما كانت تفوح منها رائحةً طازجة، رائحة حمامٍ منعش وملابس منعشة أو عرقٌ طازج أو رائحة ممارسة حب طازجة. كانت تستخدم أحيانًا عطرًا، لا أعرف نوعه، ورائحته أيضًا كانت أكثر طزاجةً من أيٍّ شيءٍ آخر. تحت هذه الروائح الطازجة كانت توجدُ رائحةٌ أخرى ثقيلةً وقاتلةً وحادة. كنت أتشممها في أغلب الأحيان، مثل حيوانٍ فضولي، بادئًا بعنقها وكتفيها، اللذين تفوح منهما رائحة حمامٍ طازج، ممتصًا الرائحة الطازجة للعرق، الذي بين نهديها ممزوجًا برائحة إبطيها، ممزوجًا برائحة أخرى، حتى أعثر على هذه الرائحة الثقيلة القاتمة، وهى تفوح بالكاد خالصةً من حولِ وسطها وبطنها، ومن بين قدميها ولها عبق الفواكه، وكان هذا يثيرني بشدة، وكنت أيضًا أتشمم ساقيها وقدميها— وأردافها، حيث كانت تختفي الرائحة الثقيلة، وثنايا ركبتيها ثانية ذات رائحة العرق الخفيفة الطازجة، وقدميها التي كانت تفوح منها رائحة الصابون أو الجلد أو التعب. ظهرها وذراعاها لم تكن لهم رائحةٌ خاصة، ولم يفح منهم شيء، إلا أنهم كانوا يفوحون برائحتها، وراحتا يديها اللتين كانتا تفوحان برائحة النهار والعمل— رائحة حبر التذاكر، ومعدن خرامة التذاكر، البصل أو السمك أو الدهن المقلي، فقاعات الصابون أو سخونة المكواة. عند غسيلهما في التو، لا تفوح منهما أيٌّ من تلك الروائح، لكن الصابون يغطي فقط الروائح، وبعد فترة تعود ضعيفةً وممزوجة في عبقٍ واحد عبق اليوم والعمل، عبق العمل ونهاية اليوم، عبق المساءات، عبق العودة للبيت، والبقاء في البيت.

جلست قرب هانا وشممتُ رائحة امرأةٍ عجوز. لا أعرف مما تصنع هذه الرائحة، التي أميِّزها في الجدات والخالات العجائز، وتظل معلقةً في حجرات وصالات بيوت العجائز، مثل اللعنة، لقد كانت هانا صغيرةً جدًا على هذه الرائحة.

اقتربتُ أكثر، فلقد رأيت أنني خيَّبت ظنها من قبل، وأردت معالجة الأمر.

"أنا سعيدٌ لأنك ستخرجين"

"حقًا؟"

"نعم، وسعيدٌ أنك ستكونين في الجوار"، أخبرتها بخصوص الشقة والعمل اللذين عثرتُ عليهما من أجلها، وعن البرامج والأحداث الثقافية المتاحة في ذلك الجزء من المدينة، وعن المكتبة العامة "هل تقرأين كثيرًا؟"

"بعض الشيء، لكن أن يُقرأ لي ذلك أفضل". نظرت إليَّ "لكن ذلك انتهى الآن، أليس كذلك؟"

"ولماذا ينتهي؟"، لكنني لم أستطع تخيل نفسي أتحدَّث إلى شرائط الكاسيت من أجلها، أو أن أقابلها كي أقرأ لها بصوتٍ عالٍ "كنت في غاية السعادةِ وفخورٌ بك بشدة عندما تعلمت القراءة، ويا لروعة الحروف، التي كتبتها ليّ!". كان ذلك صحيحًا، لقد أعجبت بها، وكنت سعيدًا، لأنها كانت تقرأ، ولأنها كتبت إليّ، لكن كان يمكنني أن أشعر كم هو ضئيل حجم إعجابي وسعادتي مقارنةً بما كلفها تعلمها

للقراءة والكتابة، ويا لقلتهما إذا لم يجعلاني أردُّ على خطاباتها، أو زيارتها، أو أتحدَّث إليها. لقد خصصت لهانا ركنًا صغيرًا، ركنًا مهما بالتأكيد، اكتسبتُ شيئًا ما منه، ولأجله صنعت شيئًا ما، لكنه لم يشغل مكانًا في حياتي.

لكن لماذا يجب عليّ أن أمنحها مكانًا أكبر في حياتي؟ تصرفت على نحوٍ مخالفٍ لتأنيب ضميري، لأنني قللتُ منها، ووضعتها في ركنٍ صغير "ألم تفكري أبدًا في الأشياء، التي نوقشت في المحاكمة، قبل المحاكمة، أقصد ألم تفكري أبدًا بخصوصها عندما كنا معًا، عندما كنت اقرأ لكِ؟"

"وهل هذا يضايقك كثيرًا؟"، لكنها لم تنتظر إجابةً مني "دائمًا ما كان ينتابني شعورٌ بأنه ما من أحدٍ فهمني على أي حال، ما من أحدٍ عرف من كنتُ، وما الذي جعلني أفعل هذا أو ذاك، وأنت تعرف عندما لا يفهمك أحد، فلا أحدٍ يطلب منك تفسيرًا، ولا حتى هيئة المحكمة كان يمكنها محاسبتي، لكن الموتى يمكنهم ذلك. إنهم يفهمون. لم يكن عليهم أن يكونوا هناك، لكن لو أنهم كانوا هناك، فسيفهمون بشكلٍ أفضل. هنا في السجن كانوا معي كثيرًا. كانوا يأتون كلَّ ليلةٍ، سواء أردتهم أم لا. قبل المحاكمة كان لايزال بوسعي طردهم عندما يريدون المجيء".

انتظرت لترى إن كان لدي شيء لأقوله، لكنني لم أستطع أن أفكر في أي شيء. في البداية، أردتُ أن أقول إنني غير قادرٍ على طردِ

أيِّ شيءٍ بعيدًا، لكن ذلك لم يكن صحيحًا، فبوسعك أن تطرد شخصًا ما، وتجعله يقبع في ركنٍ صغير.

"هل أنت متزوج؟"

"كنت. جيرترود وأنا انفصلنا منذ عدةِ سنوات، وابنتنا في مدرسة داخلية، آمل أنها لن تظل هناك حتى السنوات الأخيرة للمدرسة، وأن تنتقل لتعيش معي". الآن انتظرت لأرى لو أنها ستقول شيئًا، أو تسأل عن أيِّ شيءٍ، لكنها كانت صامتة "سأمر لأخذك في الأسبوع القادم، اتفقنا؟"

"اتفقنا"

"بهدوءٍ، أم في ضجة ومرح؟"

"بهدوء"

"حسنًا سأمرُّ لأخذك بهدوءٍ، دون موسيقى أو شمبانيا".

وقفتُ، ووقفت. نظرنا إلى بعضنا البعض. رنَّ الجرس للمرةِ الثانية ودخلت باقي النساء إلى الداخل، ومرةً أخرى تفحصت عيناها وجهي. أخذتُها بين ذراعي، لكنها لم تكن مرتاحة.

"اعتنِ بنفسك يا ولد".

"وأنتِ أيضًا".

وهكذا ودعنا بعضنا، حتى من قبل أن نفترق داخل السجن.

9

الأسبوع التالي تحديدًا كان مزدحمًا. لا أتذكر إذا ما كنت تحت ضغط فعلي لإنهاء المحاضرة، التي كنت أعمل عليها، أم فقط تحت ضغطٍ ذاتي من أجل العمل والنجاح.

الفكرة، التي كانت عندي عندما بدأت في العمل على المحاضرة لم تكن على ما يرام، وعندما بدأت في مراجعتها، كنت أتوقع أن أجد معنى وشكلاٍ متماسكا، صادفني استنتاج تلو الآخر غير متفقين مع المقدمات، وبدلًا من تقبل الأمر ظللتُ أبحث، وأنا في إرهاق وهوسٍ وقلقٍ، رغم أن الواقع نفسه فشل في مجاراة مفهومي للموضوع، وكنت جاهزًا لـ "لَيّ" عنق المشاعر أو تضخيمها أو التلاعب بها، وانتابتني حالةٌ غريبة من الانزعاج، كان يمكنني النوم لو أنني ذهبت إلى السرير متأخرًا، لكن بعد بضع ساعاتٍ كنتُ أقوم مستيقظًا فيما بعد، إلى أن قررتُ النهوض واستكمال القراءة والكتابة.

كما قمت أيضًا بما يتوجب عمله من أجل التحضير لاستقبال هانا. فرشت الشقة بأثاثٍ من شركة إيكيا، وبعض القطع القديمة، وأبلغتُ الخياط اليوناني أن هانا ستأتي، وجمعت معلوماتي بخصوص الخدمات الاجتماعية والبرامج التعليمية الحديثة. اشتريتُ بعض مواد البقالة، ووضعتُ كتبًا على أرفف المكتبة، وعلّقت الصور، وأحضرتُ بستانيًا للاعتناء بالحديقة الصغيرة المحيطة بالشرفة خارج المبنى. قمت بفعل ذلك بسرعةٍ غير طبيعيةٍ، وكان ذلك كثيرًا عليَّ جدًا.

لكن ذلك كان كافيًا لمنعي من التفكير في زيارة هانا. فقط أحيانًا، عند قيادتي للسيارة، أو حين كنتُ في شقة هانا، كانت الأفكار بخصوص الزيارة لها اليد العليا، وتحفزُّ الذكريات. رأيتها على المقعد، عيناها مثبتتان عليَّ، رأيتها في حمام السباحة، ووجهها مستديرًا إليَّ، ومرةً أخرى انتابني شعورٌ بأنني خنتها، وأنني مدينٌ لها بشيءٍ ما، ومجددًا ثرتُ على هذا الشعور، وأدنتها، ووجدتُه أمرًا مهترئًا وهينًا جدًا، الطريقة، التي التفت بها إلى ذنبها. لم تسمح لأحد في مطالبتها بتفسير إلا الموتى، مقللةً من شأن ذنبها، والتكفير عنه إلى مجرد شعور بالأرق وبمشاعر سيئة، فماذا تركت للأحياء؟ لكن لم أكن أعني الأحياء، بل كنت أقصد نفسي. ألا أملك الحق في مطالبتها بتفسير لي؟ ماذا عني؟

في الظهيرة، وقبل أن أتوجه لإحضارها، اتصلتُ بالسجن. تحدَّثت في البداية مع مسؤولة السجن.

"أنا متوترٌ قليلًا. تعرفين، أن الناس عادةً لا يطلق سراحهم بعد هذه المدة الطويلة في السجن، قبل قضاء بضع ساعات، أو أيام في الخارج. السيدة شميتز رفضت ذلك. لن يكون الأمر سهلًا بالنسبة لها".

ثم تحدَّثت إلى هانا.

"فكري فيما يجب علينا فعله غدًا، إذا ما كنت تريدين الذهاب مباشرةً إلى البيت، أو نذهب إلى الغابة أو النهر".

"سأفكر بخصوص ذلك، فما زلت أنت المدَّبر الكبير، أليس كذلك؟".

أزعجني ذلك كثيرًا. تزعجني الطريقة، التي تخبرني بها الرفيقات بأنني غير تلقائي بشكلٍ كافٍ، وأنني أؤدي الكثير بعقلي، وليس من خلال قلبي.

استطاعت أن تخمن من صمتي أنني كنتُ منزعجًا، وضحكت "لا تنزعج يا ولد. لم أقصد أيُّ شيءٍ من ذلك".

لقد قابلت هانا مرةً أخرى على المقعد الخشبي، وهي امرأة عجوز. بدت مثل امرأةٍ عجوز، وفاحت منها رائحةُ امرأةٍ عجوز، لكنني لم ألحظ صوتها على الإطلاق، فلقد بقي صوتها صغيرًا.

10

في صباح اليوم التالي، كانت هانا ميتة. شنقت نفسها عند طلوع الفجر.

عندما وصلتُ، أخذوني إلى مسؤولة السجن. رأيتها للمرةِ الأولى، امرأةٌ صغيرة الحجم رفيعة، لها شعرٌ أشقرٌ داكن، وترتدي نظارة. بدت تافهة إلى أن بدأت تتحدث، في قوةٍ ودفءٍ، ونظرةٍ صارمةً، وبيدين وذراعين نشيطتين. سألتني عن محادثتي التليفونية في الليل والمقابلة، التي كانت في الأسبوع الماضي، وهل لاحظت أي شيءٍ جعلني أخافُ عليها؟ قلتُ لا. بالفعل لم أشك في شيء ولم يحدث ما أثار مخاوفي.

"كيف تعرفتما على بعضكما البعض؟"

"كنا نعيش في الحي نفسه".

نظرت إليّ متفحصةً، فارتأيت أنني يجب على قول المزيد.

"كنا نعيش في الحي نفسه، وتعرفنا على بعضنا البعض وصرنا أصدقاءً، وعندما كنت طالبًا، كنتُ في المحاكمة التي حوكمت فيها".

"ولماذا أرسلت للسيدة شميتز شرائط كاسيت؟"

سكتُ.

"كنت تعرف أنها لا تجيد القراءة والكتابة، أليس كذلك؟ كيف عرفت؟"

هززت كتفيّ، ولم أعرف ما شأنها بحكايتي مع هانا. الدموع كانت تملأ خدّي وعنقي، وكنت أخشى ألا أكون قادرًا على الحديث، ولم أرغب في البكاءِ أمامها.

لا بدّ أنها أدركت كيف كنتُ أشعر، "تعالى معي، سأريك زنزانة السيدة شميتز". تقدمتني، لكنها ظلَّت تستدير إليَّ لتخبرني بأشياءٍ، أو لتشرح لي أشياء. هنا حيث حدث هجوم إرهابي، هنا كان قسمُ الخياطةِ، حيث كانت تعمل هانا، وهذا المكان، الذي اعتصمت فيه هانا إلى أن عادت الاقتطاعات، التي كانت في صندوق المكتبة، وهذا هوِ الطريق إلى المكتبة. توقفت أمام الزنزانة "السيدة شميتز لم تكن تراكمِ الأشياء. سترى زنزانتها، والطريقة التي كانت تعيش بها فيها".

سرير، خزانة، طاولة، مقعد، رفٌّ على الحائط، وعلى الطاولة، حوض وتواليت في ركنٍ وراء الباب. أحجارٌ زجاجية بدلًا من زجاج النوافذ. الطاولة كانت خاوية. والرفُ كان يحمل كتبًا، ومنبهًا، ودميةً محشوةً على هيئة دب، وفنجانينِ كبيرين، وقهوةٌ فورية، وعلبُ شايٍ من الصفيح، ومشغل كاسيت، وعلى رفيّن منخفضين شرائط الكاسيت، التي سجلتُها.

"ليست كلها هنا".

تتبعت مسؤولة السجن نظرتي، "السيدة شميتز كانت دائمًا تعير بعضًا من الشرائط كمساهمةٍ اجتماعيةٍ للسجناء العميان".

أخذتُ أتطلعُ لرف الكتب. بريمو ليفي، إيلي فيزيل، طاضيوس بروفسكي، جان أمري— أدب الضحايا، بجوارِ السيرةِ الذاتية لرودولف هس، وتقرير حنة آرنت عن أيخمان في القدس، وأدبيّات أكاديمية عن المعسكرات.

"هل قرأت هانا كلَّ هذا؟"

"حسنًا على الأقل طلبتهم بعناية. منذ عدة سنواتٍ كان عليَّ أن أحضر لها ببلوغرافيا شاملة عن معسكرات الاعتقال، ثم بعد ذلك بعامٍ أو عامين سألتني أن أقترح عليها بعض الكتب عن النساء في المعسكرات، سجيناتٍ وحارسات، فكتبت إلى معهد التاريخ المعاصر، فأرسلوا ببلوغرافيا متخصصة، وما أن تعلمت السيدة شميتز القراءة، بدأت تقرأ عن معسكرات الاعتقال".

أعلى السرير عُلّق الكثيرٌ من الصور الصغيرة والقصاصات الورقية. انحنيت على السرير وقرأت. كان توجد مقولات، وقصائد، ومقالات صغيرة، بل ووصفاتٍ دونتها هانا، وقصتها مثل صورِ الجرائد والمجلات. "يترك الربيع رايته الزرقاء ترفرف عبر الهواء ثانيةً"، "ظلالُ السُّحبِ تطيرُ عبر الحقول"— قصائدٌ كانت مليئةً كلها بالابتهاج بالطبيعة، والتوق إليها، وأظهرت الصور غابات تتألق في الربيع، ومروجٌ تتلألأ بالورود، وأوراقُ الخريف، وأشجارٌ وحيدة، وعشبٌ بجوار جدول نهرٍ، وشجرةُ ذات كرزٍ أحمر يانع، وشجرةُ كستناءٍ خريفية تشتعلُ

باللونِ الأصفرِ والبرتقالي، وصورةٌ من جريدةٍ أظهرت رجلًا عجوزًا وشابًا، كل منهما يرتدي بذلةً قاتمة، ويصافح كل منهما الآخر. الشاب المنحني للرجلِ العجوز، اكتشفتُ أنه أنا. كنتُ في حفلِ تخرجي من المدرسة، وكنتُ أحصل على جائزةٍ من مدير المدرسة في أثناء الحفل. كان ذلك منذ وقتٍ طويلٍ، بعد أن غادرت هانا المدينة. هل كانت هانا، التي لم تكن تستطيع القراءة، مشتركةً في الجريدة المحلية، التي ظهرت فيها صورتي؟ على أيِّ حالٍ لا بدَّ، وأنها وجدت صعوبةً في اكتشافِ الصورة والحصول على نسخةٍ، وهل كانت معها الصورة في أثناء المحاكمة؟ شعرت بالدموع ثانيةً على خدّي وعنقي.

"لقد تعلمت القراءة معك. استعارت الكتب، التي تقرأها على الشريط من المكتبة، وكانت تتبعُ ما تسمعه، كلمةً كلمة وجملةً جملة. لم يحتمل مشغل شرائط الكاسيت عملية الإيقاف والتشغيل المستمرة، وعملية الإرجاع والتسريع. كان يعطل ويحتاجُ إلى تصليحٍ، ولأن هذا يتطلبُ تصريحًا، فقد اكتشفتُ بالنهايةِ ما كانت تفعله السيدة شميتز. لم تكن ترغب في إخباري في البداية، وعندما بدأت في الكتابةِ أيضًا، وطلبت مني كراسًا للكتابة، ما عادت تحاول إخفاء الأمر. كانت أيضًا فخورةً فقط لأنها نجحت، وأرادت أن يشاركها أحدٌ سعادتها".

وفي أثناء حديثها، تابعتُ انحنائي، بينما عيوني تركز على الصور والرسائل، وتحارب الدموع. عندما استدرتُ، وجلستُ على السرير، قالت: "كانت تتمنى كثيرًا لو أنك كتبت إليها. لقد كنت أنت الشخص الوحيد، الذي يراسلها، وعند توزيع البريد كانت تقول لا

خطابات لي؟ لم تكن تسأل عن العلب، التي كانت تأتي فيها الشرائط، فلماذا لم تكتب إليها أبدًا؟"

لم أقل شيئًا. لم أتمكن من التحدُّث، فكل ما كان بوسعي فعله هو أن أتمتم وأنتحب.

ذهبت إلى الرف، والتقطت علبة شايٍّ من الصفيح، جلست بقربي، وأخذت ورقةً مطويةً من جيب سترتها، "لقد تركت رسالةً إليك، نوعٌ من الوصية. سأقرأ عليك الجزء الخاص بك"، فردت صفحةُ الورقة، "ما زال يوجد بعض المال في علبة شاي اللافندر الصفيح. أعطيها لمايكل بيرج، عليه أن يرسلها مع 7,000 مارك موجودة في البنك، إلى البنت، التي نجت من حريق الكنيسة مع أمها، وعليها أن تقرر ماذا تفعل بالمال، وقولي له إنني أسلم عليه".

وهكذا لم تترك رسالةً لي. أكانت تقصد أن تجرحني؟ أو تعاقبني؟ أم كانت روحها متعبةً جدًا لدرجة أنها لم تستطع عملُ شيءٍ سوى كتابة ما كان ضروريًا تمامًا؟ "كيف كانت طيلة هذه السنوات؟" انتظرتُ حتى يمكنني استكمال حديثي "وكيف كانت في الأيام القليلة الأخيرة؟"

"لسنواتٍ وسنواتٍ عاشت هنا بالطريقةِ نفسها، التي كنتَ ستحياها لو كنت في دير، وكأنها انتقلت إلى هنا طواعيةً، وعن طيب خاطرٍ مخضعةً نفسها لنظامنا، كما لو أن العمل الرتيب صار نوعا من أنواع التأمل. كانت بقية النساء تحترمها كثيرًا، وكانت ودودةً معهن، ولكن في تحفظ، بل أكثر من ذلك، كانت لها هيبة، وإن سُئلت

للإدلاء بنصيحتها عند حدوث المشاكل، وإن تدخلت في نقاشٍ، كان قرارها يُقبل، بعد ذلك ومنذ بضع سنواتٍ استسلمت، فقد كانت تعتني دائمًا بنفسها بشكلٍ شخصي، وكانت لطيفةً، على الرغم من بنيانها القوي، ونظيفةً بعناية، إلا أنها مؤخرًا بدأت تأكل كثيرًا، وقليلًا ما كانت تستحم، إلى أن صارت بدينة وذات رائحةٍ. لم تبد غير سعيدةٍ أو غير راضيةٍ. في الحقيقة كان الأمر كما لو أن التراجع إلى داخل الدير ما عاد كافيًا، كأن حياة الدير ما زالت اجتماعيةً جدًا ومليئةً بالأحاديث، لذا كان عليها أن تنسحب أكثر وأكثر، إلى داخل زنزانةٍ فرديةٍ في مأمن من العيون، حيث ما عاد شكل الملبس والروائح يعني شيئًا. لا، إنه من الخطأ القول أنها استسلمت. لقد أعادت تعريف مكانها بطريقةٍ تناسبها، لكنها ما عادت تبهر بقية النساء".

"والأيام الأخيرة؟"

"كانت على نفس الوضع، الذي كانت عليه دائمًا".

"هل يمكنني رؤيتها؟"

أومأت برأسها، لكنها ظلَّت في مكانها، "هل يمكن أن يصبح العالم غير محتملٍ بشدة لشخص بعد سنواتٍ من الوحدة؟ هل من الأفضل أن تقتل نفسك بدلًا من أن تعود من الدير إلى العالم، من الصومعة إلى الحياة؟" استدارت إليّ "لم تكتب السيدة شميتز أيُّ شيءٍ عن سبب إقدامها على قتل نفسها، وأنت لن تقول ما الذي كان بينكما، وأدى إلى قتل السيدة شميتز لنفسها في نهايةِ الليلِ قبل أن

تأتي لأخذها". طوَت قطعة الورق، وضعتها بعيدًا، وقفت، وعدَّلت من جيبتها "إن موتها لهو لطمةٌ شديدة لي، تفهم ما أقصد، في اللحظةِ الراهنة أنا غاضبةٌ جدًا، غاضبةٌ من السيدة شميتز، ومنك ولكن دعنا نذهب".

تقدمتني ثانيةً، لكن صامتةً هذه المرة. كانت هانا ترقدُ داخل المستشفى في مهجعٍ صغير، وبالكاد استطعنا أن نقف بين الحائط والمحفّة. رفعت مسؤولة السجن الملاءة.

قطعةُ قماشٍ كانت مربوطةً حول رأسِ هانا لتمسكَ بذقنها إلى أن تتخشب الجثة. لم يكن وجهها مطمئنًا تحديدًا، أو مكروبًا تحديدًا، بل بدا صارمًا وميتًا، وبينما أنا أنظرُ وأنظرُ صار الوجه الحيّ مرئيًا في الوجه الميت، والوجه الصغير في الوجه العجوز لا بدَّ، وأن هذا ما يحدثُ للأزواجِ الكبار في السن، هكذا اعتقدتُ، فالشاب يظلُّ محفوظًا في الرجل العجوز بالنسبةِ لها، وجمال وطلاوةِ المرأةِ الشابة يظلّان في المرأةِ العجوز بالنسبةِ له. لماذا لم أرَ هذا الانعكاسِ في الأسبوعِ الماضي؟

يجب عليّ ألا أبكي، بعد فترةٍ، عندما نظرت إليّ مسؤولةُ السجن مستفسرة، أومأتُ برأسي، ففردت الملاءة على وجه هانا ثانية.

11

حلّ الخريف قبل أن أتمكن من تنفيذ وصية هانا، فالفتاةُ كانت تعيش في نيويورك، واستغليت فرصةَ وجود اجتماعٍ في بوسطن كمناسبةٍ لكي أحضر لها المال: شيكٌ بنكي، بالإضافةِ إلى علبةِ الشاي الصفيح، التي بها مبلغٌ نقديّ. كنتُ كتبتُ لها، وقدمتُ نفسي كمؤرخٍ قانوني، وذكرت المحاكمة. أخبرتها بأنني سأكون ممتنًا لو أنها أتاحت لي فرصةً للحديث معها، فدعتني لتناول الشاي.

استقليت القطار من بوسطن إلى نيويورك، وكانت الغابات موكبًا فخريًا من اللون البنيّ والأصفر والبرتقالي والأحمر المصفر، والكستناء، وأشجار القيقب ذات اللون القرمزي المتوهج المتأجج. ذكرني ذلك بصورِ الخريف في زنزانةِ هانا، وعندما أتعبني إيقاعُ عجلاتِ القطار واهتزازاته، نمتُ فحلمتُ بهانا وبي في بيتٍ على تلالٍ تتقدُ بألوانِ الخريف اصطفت في طريقنا. كانت هانا أكبر سنًا عما التقيتها، وأصغرُ سنًا عما التقيتها مجددًا، أكبرُ مني، وأكثرُ جاذبيةً من السنواتِ الأولى، وأكثر استرخاءً في سنها مع حركاتها وأكثر شعورًا بالسكينةِ داخل جسدها. رأيتها تخرجُ من السيارة، وتحملُ أكياس التسوق، ورأيتها تمضي خلال حديقة المنزل، ورأيتها تضع الأكياس، وتصعدُ السلم أمامي. اشتياقي لهانا أصبح قويًا لدرجةٍ مؤلمة. قاومت الاشتياق، وتجادلت ضد واقع هانا وواقعي، وواقع أعمارنا، وواقع

ظروفنا. كيف يمكن لهانا، التي لم تكن تتحدَّث الإنجليزية، أن تعيش في أمريكا؟ كما أنه لم يكن بوسعها قيادة سيارة أيضًا.

استيقظتُ من نومي، وأنا أعرفُ أن هانا كانت ميتة. كذلك كنت أعرف بأن رغبتي تركزت عليها دون أن تكون هي موضع الرغبة. إنها رغبةُ العودة إلى البيت.

الابنةُ كانت تعيشُ في نيويورك في شارعٍ بجوار حديقة سنترال بارك. وكان الشارع مصفوفًا من كلّا الجانبين بصفٍ من البيوتِ القديمة المصنوعة من حجرٍ رمليٍّ قاتم، ولها أروقةٌ مصنوعةٌ من الحجر الرملي ذاته، وتقود إلى مدخل الطابق الأول. خلق هذا تأثيرًا صارمًا– بيتٌ وراء بيتٍ لها واجهةٌ تكاد تكون متطابقة، ورواقٍ تلو رواق، وأشجارٍ زرعت حديثًا، بعد فواصلٍ متتالية على طولِ الرصيف، مع بضع أوراقٍ صفراء على أغصانٍ رفيعة.

قدمت الابنة الشاي بجوار النوافذ الكبيرة المطلة على الحدائق الخلفية، بعضها أخضر وملون، وبعضها مجرد مجموعاتٍ من المخلفات، وما أن جلسنا وصُب الشاي، وأضيف السكر وأذيب، تحوَّلت من اللغةِ الإنجليزية، التي استقبلتني بها، إلى اللغة الألمانية، "ما الذي جاء بك إلى هنا؟". لم يكن السؤال ودودًا أو غير ودودٍ، فنبرةُ صوتها كانت عمليةً بشكلٍ تام. كلُّ شيءٍ يخصها كان عمليًا: طريقتها، ملامحها، فستانها. وجهها لم يشِ بعمرٍ على نحوٍ غريب، على نفس المنوال، الذي تبدو عليه الوجوه بعد شدها، لكن ربما كان

على هذه الشاكلة بسبب معاناتها القديمة، فلقد حاولتُ، وفشلتُ في تذكر وجهها عندما رأيتها أثناء المحاكمة.

أخبرتها بموتِ هانا، وبوصاياها الأخيرة.

"ولماذا أنا؟"

"أعتقدُ لأنك أنتِ الناجية الوحيدة".

"وكيف من المفترض أن أتعامل مع ذلك؟"

"أيما تعتقدي أنهُ مناسب".

"وأن أمنح السيدة شميتز الغفران؟"

في البداية أردتُ أن أعترض، لكن هانا كانت بالفعلِ تطلبُ شيئًا كبيرًا. لم تكن سنواتها في السجن تعويضًا كافيًا، لقد أرادت هانا أن تعطيها المعنى، الذي يخصها، ولقد رغبت في أن يتم إدراك هذا المعنى. قلتُ قدر إمكاني.

هزَّت رأسها، ولم أكن أدري إذا كان هذا يعني أنها رفضت قبول تفسيري، أم أنها ترفض أن تقبل تقدير هانا.

"أيمكنك ألا تقدري الأمر دون أن تمنحيها الغفران؟"

ضحكت "أنت تحبها أليس كذلك؟ ما الذي كان يربطك بها؟"

ترددتُ للحظة "كنتُ أقرأ لها بصوتٍ عالٍ. بدأ ذلك عندما كنتُ في الخامسةَ عشر من عمري، واستمر أثناء وجودها في السجن".

"كيف فعلت...".

"كنت أرسل إليها شرائط الكاسيت. السيدة شميتز لم تكن تعرف القراءة والكتابة طيلة حياتها، لقد تعلمت فقط أن تقرأ وتكتب في السجن".

"ولماذا فعلت كلَّ هذا؟"

"عندما كنتُ في الخامسة عشرة من عمري كنا في علاقة".

"هل تقصد أنك نمت معها؟"

"نعم".

"تلك المرأة كانت وحشية عن جد.. هل تجاوزت حقيقة أنك كنت في الخامسة عشرة عندما.. لا لقد قلت بنفسك أنك بدأت تقرأ لها ثانيةً عندما كانت في السجن. هل تزوجت؟"

أومأت برأسي.

"والزواج كان قصيرًا، وغير سعيدٍ، ولم تتزّوج ثانيةً أبدًا، والطفل إن كان هناك طفل، في مدرسةٍ داخلية".

"ذلك صحيحًا، ويحدثُ مع آلاف الناس، وليس ذنب السيدة شميتز".

"هل شعرت من قبل، وأنت تتعامل معها في السنوات الأخيرة، بأنها كانت تعرفُ ما الذي فعلته بك؟"

هززتُ كتفيّ باستهجانٍ "على أيّ حالٍ لقد كانت تعرف ما الذي فعلته بالناسِ في المعسكر، وفي المسيرة. إنها لم تقل فقط لي ذلك، لقد تعاملت مع الأمر بقصدٍ خلال سنواتها الأخيرة في السجن"، ثم أخبرتها بما قالته مسؤولة السجن.

نهضَت وقطعت الغرفة ذهابًا وإيابًا "كم يبلغُ مقدار المال؟"

رحتُ إلى خزانة المعاطف، حيثُ تركتُ حقيبتي، وعدتُ بالشيك، وبعلبةِ الشاي الصفيح "ها هي".

نظرت إلى الشيك، ووضعته على الطاولة، وفتحت علبة الصفيح، وأغلقتها ثانيةً، وأمسكتها في يدها، وثبتت عينيها عليها "عندما كنتُ بنتًا صغيرة، كان لدي علبةُ شايٍّ صفيحٍ أخبئ فيها أشيائي. ليست مثل هذه، على الرغم من أن مثل هذا النوع من علب الشاي الصفيح كانت موجودة في ذلك الوقت، لكنها واحدةٌ ذات حروفٍ سريالية، ليست واحدةٍ من التي تغلق من أعلى، لكنها واحدةً من التي تصنعُ فرقعةَ عند فتحها. أحضرتها معي إلى المعسكر، لكنها ذات يومٍ سرقت مني".

"وماذا كان فيها؟"

"المتوقع. قصاصة شعرٍ من كلبنا. تذاكرٌ للأوبرا كان أبي أخذنا إليها، خاتم فزت به في مكانٍ ما، أو وجدته في علبة، لم تُسرق العلبةُ من أجل ما فيها. العلبة نفسها، وما يمكن أن تستخدم به كان ذلك هو الأهم في المعسكر". وضعت علبة الصفيح جانبًا أعلى الشيك.

"هل لديك اقتراحٌ بما يمكن عمله بالمال؟ إن استخدامه في شيءٍ ما له علاقةٌ بالهولوكوست سيبدو بالفعل لي طلبًا للغفران، وهذا شيءٌ لا أوده ولا أهتم بمنحه".

"للأميين الذين يرغبون في تعلم القراءة والكتابة. لا بدَّ، وأنه هناك جمعياتٍ غير ربحية، مؤسسات، أو جمعيات يمكن إعطاء المال لها. أنا متأكد أن هذه الجمعيات موجودة". أخذت تفكر في الأمر.

"هل هناك جمعياتٍ يهودية مماثلة؟"

"يمكنك الاعتماد على ذلك، فلو أن هنالك جمعياتٍ لشيءٍ ما، فإن هنالك جمعيات يهودية ممثلة لذات الشيء، الأميّة، ولا بد أن نعترف بالأمر، لا نستطيع اعتبارها مشكلةً يهودية"، ثم دفعت بالشيك والمال إليَّ ثانيةً "إذن دعنا نقم بالأمر على هذا النحو. ستعثر على أي جمعيةٍ يهوديةٍ مماثلة سواء كانت هنا أو في ألمانيا، وتضع المال في حساب الجمعية، التي تبدو معقولةً بالنسبةِ إليك"، ثم ضحكت "ولو أنَّ مسألة التقديرَ مهمة جدًا، فبوسعك أن تضعه تحت اسم هانا شميتز"، ثم التقطت العلبةُ الصفيح ثانيةً "سأحتفظُ بالعلبة".

12

حدث كل هذا منذ عشر سنواتٍ. في السنين الأولى القليلة، بعد موتِ هانا، كنتُ معذبًا بالأسئلةِ القديمة إذا ما كنت أنكرتها أو خنتها، وإذا ما كنتُ مدينًا لها بشيءٍ ما، وإذا ما كنتُ مذنبًا لأنني أحببتها. أحيانًا كنتُ أسألُ نفسي إذا ما كنتُ مسؤولًا عن موتها، وأحيانًا كنتُ في قمةِ غضبي منها، ومما فعلتهُ بي إلى أن خبا غضبي في النهاية، وما عادت الأسئلة تهمني، وأيًا كان ما فعلتُه أم لم أفعله، وأيًا كان ما فعلته أم لم تفعله بي، لقد كان ذلك طريق حياتي، الذي مشيتُ فيه.

وبعد موتها بفترةٍ قصيرة، قررتُ أن أكتب قصتي أنا وهانا. منذ ذلك الحين كتبتها عدةَ مراتٍ في رأسي، كلَّ مرةٍ بشكلٍ مختلف، كلَّ مرةٍ بصورٍ جديدة، وضفائر جديدةٍ من الحركةِ والأفكار، وبذلك كانت هناك قصصٌ مختلفةٌ عديدة، بالإضافةِ إلى القصةِ، التي كتبتها، والضمان الوحيد على أن القصةَ المكتوبة هي القصة الحقيقية يكمن في حقيقةِ أنني كتبتها، ولم أكتبُ القصص الأخرى. القصةُ المكتوبة أرادت أن تُكتب والقصص العديدةُ الأخرى لم ترغب في ذلك.

في البداية أردتُ أن أكتبُ قصتنا كي أتحرر منها، لكن الذكريات لم تعاودني من أجل ذلك، ثم أدركتُ أن قصتنا تنسابُ مني، وأردتُ أن أمسك بها من خلال كتابتها، لكن ذلك لم ينطلِ على الذكرياتِ أيضًا، وعلى مدارِ السنين القليلةِ الماضية تركتُ قصتنا وحيدة،

وتصالحتُ معها، فعادت مرةً أخرى، تفصيلةً تفصيلة، وفي هذا الشكلِ الدائريٍّ الكامل، وبمسارها الخاص، وبشعورها الخاص بالاكتمال، وبأنها ما عادت تحزنني. يا لها من قصةٍ حزينة، كنت أفكر في ذلك طويلًا، ولا يعني هذا أنني الآن أراها قصةً سعيدة، لكن أعتقد بأنها قصةٌ حقيقية، وهكذا، فالسؤال إذا ما كانت حزينة أو سعيدة لا معنى له أيًا كان.

على أيِّ حالٍ هذا ما أفكر فيه عندما أفكر في الأمر مصادفة، لكن لو أن شيئًا ما يؤلمني، فإن الآلام، التي كنتُ أعاني منها آنذاك تعود إليّ، وعندما أشعر بالذنب، فإن مشاعري بالذنب آنذاك تعود إليّ، وإن كنتُ أشتاقُ إلى شيءٍ اليوم، أو أشعرُ بالحنين، فإنني أشعرُ باشتياقي وحنيني آنذاك. إن طبقاتِ حياتنا مشيدة بإحكامٍ واحدةٍ فوق الأخرى لدرجة أننا نصطدم دائمًا بالأحداثِ السابقة في الأيام اللاحقة، ليست كمسألةٍ تشكلت وذهبت لحالها، ولكن كمسألة راهنة وحية. أتفهم هذا. إلا أنني، أجدُ الأمر أحيانًا يصعبُ احتماله، ربما كتبتُ قصتنا كي أتحرر منها، حتى وإن لم أستطع فعل ذلك أبدًا.

بمجرد عودتي من نيويورك تبرعت بمالِ هانا تحت اسمها إلى الاتحاد اليهودي لمكافحةِ الأميَّة. تسلمتُ خطابًا قصيرًا مكتوبًا على الكومبيوتر يشكر فيه الاتحاد اليهودي السيدة هانا شميتز لتبرعها، والخطاب معي في جيبي، اتجهت إلى المقابر، حيث قبر هانا، وهذه كانت المرة الأولى والوحيدة، التي وقفتُ فيها هناك.

التعريف بالكاتب

برنهارد شلينك: روائي ألماني ومحامي ولد في ٦ يوليو ١٩٤٤ في بيت إيل، ألمانيا، لأب ألماني وأم سويسرية، وكان الابن الأصغر بين أربعة أبناء. وكان كل من والديه طلاب لاهوت، ولقد فقد والده وظيفته كأستاذ في اللاهوت بسبب النازيين، واكتفى بأن يكون راعيًا في الكنيسة عوضًا عن ذلك. ولقد نشأ برنهارد شلينك في هايدلبرج منذ كان يبلغ من العمر عامين. درس القانون في الجامعة الحرة في برلين الغربية، وتخرج في عام ١٩٦٨.

أصبح شلينك قاضيًا في المحكمة الدستورية في الدولة الاتحادية بشمال الراين وستفاليا عام ١٩٨٨ وفي عام ١٩٩٢ صار أستاذًا للقانون العام وفلسفة القانون في جامعة هومبولت في برلين. وتقاعد في يناير ٢٠٠٦.

التعريف بالمترجم

تامر فتحي: شاعر وصحفي ومترجم مصري من مواليد ١٩٨٠ في مدينة الاسكندرية له ديوان "بالأمس فقدت زرًا، قصة الملابس" الصادر في عام ٢٠٠٥ عن دار شرقيات، كما صدرت له ترجمة رواية "الحالة الغريبة لبنجامين بوطون" للكاتب الأمريكي سكوت فيتزجيرالد عام ٢٠١١ عن دار روافد، وكتاب "شفرة الموهبة" للكاتب دانيال كويل الصادر في عام ٢٠١٤ عن دار التنوير. كما ترجم أيضا العديد من المقالات الثقافية والقصائد في الإصدار الأول لجريدة البديل المصرية.



عند سقوطه من شدة الإعياء في طريقه عودته من المدرسة إلى البيت، لم يكن مايكل بيرغ البالغ من العمر خمسة عشر عاما يدري أنه سيقع في غرام هانا السيدة التي أنقذته وتبلغ من العمر ضعف عمره. وبعد علاقة لم تستمر طويلا تختفي هانا دون سبب. وعندما يصبح مايكل طالبا في كلية الحقوق، يراها ثانية متهمة في جريمة شنعاء. لكن مايكل يدرك في أثناء المحاكمة أن هانا تخفي سرا هو بالنسبة لها أشد عارا من جريمتها.

.....

"الحقيقة هذا نص فاتن إسلوبيا من حيث كونه نص سهل ممتنع بامتياز، يبدو سرديا سهلا، بينما يخفي طبقات عميقة من الفلسفة والفكر خلف سطور السرد، وتلاحق الأسئلة.

هو نص ممتع، وصادق في وصف شخصية هانا، التي نجحت كيت ونسلت في تجسيد شخصيتها على الشاشة باقتدار، والمبهر أنها التزمت بالوصف الدقيق الذي قدمه الكاتب لها، كشخصية غامضة بليدة المشاعر، رغم أنها تخفي عاطفيتها وهذا في ظني تجسيد عميق للشخصية الألمانية، التي تخفي مشاعرها وتلتزم الصمت وتبدو جامدة عصية على الفهم، متحفظة، خصوصا في الجيل الذي يتناوله الكاتب وهو جيل النازية. والرواية - في ظني- نموذج للنقد الذاتي، الذي ينقد به الكاتب المجتمع الألماني على مستوى الجمهور العادي الذي تقبل ما فعله الديكتاتور إما خوفا من بطشه أو تصديقا لمزاعمه.

إنها رواية تدين الانغلاق والأمية، وسلبية المثقف وعزلته، وكذلك تطرح فكرة العدل بقوة، وهي أيضا رواية عن الحب، والمسؤولية، وعن ارتباط المعرفة بالمتعة والجنس باعتباره معنى من معاني استعادة الحياة واستمراريتها، إنها رواية تستحق أكثر من قراءة."

الروائي إبراهيم فرغلي

